د. أسماء غريب

# أمشي فوق خط عمودي



نصوص نقدية

2020

الأزرق

ASMA GHERIB

# أمشي فوق خطّ عموديّ

## نصوص نقديّة

د. أسماء غريب

# أمشي فوق خطّ عموديّ

نصوص نقديّة

2020



# أمشي فوق خطّ عموديّ

## نصوص نقديّة

د. أسماء غريب

الطباعة: دار الفرات للثقافة والإعلام – العراق – بابل

بالاشتراك مع دار سما للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد(٣٦١٣) لسنة ٢٠٢٠م

*Al-Furat House for Education and Information*

*Iraq – Babylon*

**لوحة الغلاف : من إنجازد. أسماء غريب**




﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾

**القيامة: ١٦.**

# هذا الكتاب

حينما فتحتُ عينيّ على دروس الفلسفة الأولى في مغربيَ الحبيب، تعلّمتُ باكراً أن أحبّ هِرَقليطْس وأبتعد عن أرسطو. كان أساتذتي الأفاضل الأوائل يحاولون أن يعلّمونني كيف أحبُّ أرسطو لأنّه صاحب فكر ومنطق، لكنّني كنتُ أراه لا يفقه في الفلسفة أو الحكمة العالية الحقّة شيئاً، لا سيما وأنّني علمتُ أنّه كانَ كثير الشكوى والانزعاج من صديقي هِرقليطس، فقد كان ينظر إليه بعين الرّيبة والشكّ، وأنا على العكس من ذلك كنت أراه أب الحكمة كلّها. وإذا كانَ أرسطو يتحرّكُ في عالم العقل والأفكار، فإنّ هرقليطس كان يتحرّكُ نحو الهاوية، وأنا مثل صديقي أريد في هذا الكتاب أن أدفع بكَ إلى الحفرة العميقة لأفتح عينيْكَ وأوقظكَ من نومك وأعرّفكَ على الفرق بين الفلسفة والحكمة، وبين المنطق والإيمان، فالفلسفة مهدّئ ومسكّنٌ جميل جدّاً، والحكمة صدمة وبركان. الفلسفة تعوّدكَ على تحليل الأشياء ومَنْطَقَتِها حتّى تستطيع أن تنام نوماً مريحاً، لكنّ الحكمة والعرفان هما تقنيّة فعّالة لإخراجك من حالة اللّاوعي التي تعيشها، علّك بها تغادرُ أحلامكَ وتدخلُ إلى عالم الحقيقة. وقد يحدثُ أن تقرأ هذا الكتاب وتفهمَ منه أشياء مختلفة، دون أن تعي ذلك، فأنا أقول شيئاً وأنت تسمع أشياء، وأكتبُ أشياء عدّة وتقرأُ شيئاً واحداً وهذا بسبب ما عوّدتْك إيّاهُ الفلسفةُ الرّسميّة، إنّها تعطي لكلّ إنسانٍ التّفسير الّذي يلائمه ويوافقه، لكنّي في كتابي هذا أزعج نومكَ، ولأجل هذا قليل هُم الفلاسفة الّذين يحبّون العرفاءَ، لكن لا ضير في ذلكَ، لا بدّ من المشي قُدماً، ولا بدّ لي أن أدفعَ بكَ إلى عالم الأسرار دون أن ألتفت

إلى أرسطو، فهو يمشي فوق خطّ أفقيّ وأنا أمشي فوق خطّ عموديّ، والعالم الأفقيّ فيه ١+١ تساوي ٢، وهي في عالمي ربّما ليست كذلك، لأجل هذا يُدَرّسُ أرسطو في كلّ الكلّيات والجامعات الرّسميّة، ولا يُعرَفُ أيّ شيءٍ عن هرقليطس لأنه يقيم في الهاوية، أيْ في المستوى العموديّ حيث تتشابكُ الحدود ويصبح الحصان براقاً، والفراشة امرأة، والثعبان عصاً، والحبال أفاعي، واليد بيضاء من غير سوء، وكلّ ما تعوّدتَ على أنّه صواب يصبح فجأة خطأ، والعكس صحيح، لأنّكَ سقطتَ، وكان لسقوطكَ هذا دويّ مفجع أفاقكَ من نومكَ، وفهمتَ أنّ المكان الّذي تكون فيه غائباً هو نفسه المكان الّذي تكون فيه موجوداً وحاضراً، وعرفتَ أيضاً لماذا كلّما أتى اللهُ وقرعَ بابكَ لم يجدكَ في بيتكَ، وأنّى له أن يجدكَ وقد كنتَ غائباً عن الوعي، وتغِطُّ كما معظم النّاس في نوم عميق! هذا الكتاب يريدكَ فقط أن تبقى في منزلكَ، ألم تسمعِ الخالقَ وهو يصف النّوم العميق ويقول عنه مخاطباً النّاسَ: "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ"؟! استيقظ إذن وامسك نبلتك، ولا يغرّنكَ الرّامي البارع الّذي لا يُخطأ الهدف، إنّما العبرة في أن تكون نبلتُكَ برأسين، رأسٌ يتّجهُ نحو الهدف الخارجيّ، ورأسٌ يتّجه نحو الدّاخل، أيْ نحو ذاتكَ العليا!

**د. أسماء غريب**
**١٠ تشرين الثاني ٢٠٢٠**
**إيطاليا**

(ا)

## الضّيفُ قادمٌ، ابقَ في البيت وانتظر
## (رحلة معَ الأرواحيّة الأسفيّة سوزان كليراك)

لا يُمكنُكَ أن تكون في مدينة القباب الحُمر باليرمو ولا تعرف شارع ماكيدا! هو يعرفني جيّداً وأنا كذلك؛ إنه الطّريق الجديد الّذي أحدث في قلب العاصمة الصّقليّة ثورة معماريّة تنويريّة اخترقت كلّ الأحياء والطّرقات بهدف خلق محور الشّمال الجنوبيّ. بدأتْ فيه الأعمالُ البنائيّة بضربة من مطرقة ذهبيّة نفّذها في ٢٤ تمّوز ١٦٠٠ نائب الملك بيرنانْدينو دي كارْدينيس. ومنذ ذلك الحين شهدتِ المدينةُ تغييراً هائلاً في بنيتها السّياسيّة والاجتماعيّة والدّينية والاقتصاديّة. ولا أدلّ على ذلك من البنايات الضّخمة والمؤسّسات الحيويّة المهمّة التي تصطفّ شامخةً على ضفّتي هذا الشّارع بين كنائس، وأديرة وقصور وسيطيّة معظَمُها ذات طابع هندسيّ باروكيّ، وأنا الآن أكتبُ إليكُم منهُ وقد مرّتْ على إنشائه ما يقارب الأربعة قرون. أصعدُ إلى إحدى شرفاتِ كنيسة سان كاتالدو، وأطلُّ على الشّارع من زاوية تجعلني أكثر إحاطةً به، فتأخذني روحي ويطيرُ بي فكري إلى أعماق تاريخ هذه المدينة، فأرى الشّارع شيخاً جليلاً وقوراً، وقد طرحَ العصا والخرقةَ والجبّة ولبسَ لباسَ رجال زمني وعصري، يمدُّ إليّ يده، ثمّ يأخذني معه في رحلة بهيجة يطلعني فيها على أسراره العظيمة بمحبّة عميقة ولطفٍ نادرٍ.

يأتيني صوتُهُ هامساً، يُحدّثُني عن ثورة السّابعة والنّصف التي اندلعت عام ١٨٦٦ وكذا عن ثورة الخبز التي وقعت في عام ١٩٤٤، فأفهم أنّ شارع

ماكيدا هو شارع التغيّرات التاريخيّة والسياسيّة بامتياز لهذه المدينة الفاتنة الجمال. أديرُ رأسي فأسمعُ الشّيخَ يقولُ من جديدٍ في قلبي: "أنا من يُقلّبُ الأزمان في هذا البلد يا طفلتي الصّغيرة، أنا منْ يُقلّبُ قلوب النّاس ويجمع ويفصل بينها، ويقرِّبُ ويُباعدُ، ويوَحّدُ ويُفَرّقُ. أتصرّفُ بما يمليه عليّ صاحبُ المُلكِ والملكوت، فلتمدّي بصركِ، وانظري كم من الشّعوب مرّت هنا، ما ميّزتُ يوماً فيها بين مسلم ومسيحيّ، ولا بين يهوديّ وبوذيّ أو ملحدٍ، كلّهم لليوم مازالوا هنا، انزلي من شرفتكِ وتعالي أريكِ الدّكاكينَ الصّغيرة والحوانيت العتيقة، والمطاعم الزّاهية، والمقاهي الباهية، والأسواق وكلّ ما تحبّين، ولترهفي سمعكِ لكلّ الأصوات التي ستأتيك طالبة ودّكِ من الأزقّة السّاحرة، وكوني يا ابنتي من أهل العِطر الزكيّ، والذّوق والشّمّ الذكيّ، والبصيرة الثّاقبة، ولتستخدمي كلّ حاسّة ألهمك الله إيّاها، فالحوانيت تناديكِ، انظري إلى رسوماتها، واقرئي ما سُطِّر بين أبوابها من تاريخ الهنود والأفارقة والأوروبيّين بكلّ جنسياتهم. ولا تنسي الإنجليزيّين والأمريكيّين، وإيّاك أن تغفلي عن الرّوسيّين، فكلّ شعوب الله هنا. هذا ما قالتْه لكِ أيضاً شيختُنا العارفة باللّه سوق البلّارو العظيمة، وأنا أتذكّر جيّداً هذا، وكيف أنّك من وحيها كتبتِ روايتكِ (السيّدة كُركُم). يا لهذه الرّوائح الزكّية، إنّها مفعمة بتوابل الكيرّي، وهذه المطاعمُ تسكرني وتدخلني في جذبة صوفيّة لا أقوى على الخروج منها بتاتاً، لا سيما حينما تمتزج برائحة كريّات الأرز الصقليّة البرتقاليّة الشّكل والذّهبيّة اللّون، وآهٍ من الكانّولو المحشو بالقشدة، وفواكه المارتورانا المشرقة الألوان والمصنوعة من اللّوز الأصيل، وكذا الكستناء المشويّ فوق الفحم، وماذا أقول لكِ عن روائح سمك البكّالا المنقوع في خلّ التفّاح والممزوج بالزبيب والبصل، وعن شرائح عجين الحمّص المقليّ

والبطاطس المعجونة بالبقدونس والإبزار الأبيض، وأطباقِ سَلطَات الحلزون وفواكه البحر، وكلّ الأجبان بمختلف أحجامها وأنواعها، بل كلّ خيرات الله المتدفّقة عليّ مُذ رأيتُ النّور إلى أن ناديتُكِ من مغربكِ السّامقِ الأبيّ.

مازال الشّيخ يهمسُ بصوته الحنون ويقول: "أنا شارعُ ماكيدا، شارع الأسرار، حامل الأخبار، بائع الورود والأزهار، وأنتِ، أنتِ يا صغيرتي الطّائر الذهبيّ الأزرق الّذي طال انتظارهُ، هيّا أرني ماتحملين بين يديكِ يا ابنة الطّاهرين الأبرار؟". سمعتُ كلماته فحرّكتُ يديَّ، وجلستُ فوق كرسيّ حجريّ، وعيناي تحلّقان فوق الرسّامين المنهمكين في رسم لوحاتهم الطرقيّة، وأذناي تلتقطان أنغام المعزوفات الصقليّة الفلكلوريّة، وعازفة القيثارة جينيفرا جيلّي قبالتي تشدو بأعذب الألحان الإغريقيّة وشعرها الغجريُّ الأحمر يتطاير في الهواء، والشّيخ مازال ينتظرُني، أفتح قارئي الإلكترونيّ، وتحضرني صورة صديقة كنتُ قد زرتُها منذ ما يزيد عن عشر سنوات فأتذكّرُ كيف أنّي حينما وصلتُ إلى بيتها، وجدتُها في انتظاري هي وصديقتها المهندسة المعماريّة، لم يُكن فوق الطّاولة شيء من واجب الضيافة سوى بضعة فناجين من القهوة، وأنا لا أشرب القهوة بتاتاً، اعتذرتُ وطلبتُ كأس ماء فقط. تناقشنا في كثير من الأمور الفلسفيّة والثقافيّة، كان الحوار ممتعاً، ولا أعرف كيف تطوّر الأمرُ وبدأتا في الحديث عن قراءة أوراق التاروت، ثمّ قامت باولا – وهذا كان اسمها– وجلبتْ علبة التاروت الخاصّة بها ووضعتها فوق الطّاولة، وفي الوقت الذي بدأتْ ترتّبُ فيه الأوراق، قمتُ من مكاني وانزويتُ في ركن بعيد من الغرفة، تفاجأت الاثنتان من تصرّفي هذا، فسألتاني في قلق: "لماذا، يا أسماء، ألا يعجبك التاروت؟" نظرتُ إليهما نظرة فاحصة سابرة وقلتُ: "إنّي أستغرب جدّاً كيف أنّك يا باولا

أستاذة جامعيّة وصديقتك مهندسة معماريّة بارعة، وتستخدمان أوراق التاروت للاطّلاع على أشياء لا علاقة لها أساساً بالغيب؟!"، بهتت باولا، وامتقع لون آنجيلا، وردّت الأولى قائلة: "إنّه علم قائم بذاته، ونحن من حين لآخر نلجأ إليه لنستفسر عن بعض الأمور". قلت لها: "أعلم أنه علم قائم بذاته، وإذا أردتِ شرحتُه لكِ من الألف إلى الياء في جلسة واحدة، لكن لا ينفع أبداً أن أجلس معكما اللحظة على الطاولة نفسها وأشارككما قراءة الأوراق، إنّ هذا لعب، مجرّد لعب وغواية وفتنة"، ازدادتْ حيرة آنجيلا من كلماتي أكثر فأكثر ثمّ قالت: "عجيب أمرك يا أسماء، أولستِ بصوفيّة؟!"، لجمني سؤالُها للحظات، وبقيتُ أتساءل في نفسي قائلة بصمت: "ما لهؤلاء النّاس ينعتونني بالصّوفية، وأنا الّتي لم أخبر أحداً بذلك، ولا حتّى أعلم ذلك في نفسي، يا إلهي ما هذا الّذي يحدث لي..."، ثمّ أفقتُ من سهوي وأجبتُها: "وهل هذا يعني أنّ الصّوفيَّ عليه أن يُشركَ باللّه، إنّ ما تقومان به أمر لا أستطيع أن أشارككما فيه، وليس لي أدنى حقّ في محاكمتكما أو القول لكما أنّكما بصدد فعل شيء حرام"، ضحكت باولا من أعماق قلبها وقالت لصديقتها: "أرأيتِ لقد خجّلتني أمام أسماء، ما الّذي ستقوله عنّا الآن، أنّنا من النّساء المشعوذات أو السّاحرات مثلاً؟!"، قلتُ لها: "دعكِ منّي الآن، فأنا أعلمُ أنَّ مثل هذه الأشياء شائعة بكثرة بين النّساء هنا وإن كنّ يدّعين العكس، واجمعا ورقكما هذا من على الطّاولة، وقولا لي، عمّاذا كنتُما تبحثان أو ترجوان الورقَ أن يفصح به لكما؟"، قالت باولا: "خائبة الحظّ آنجيلا هذه، تحبُّ رجلاً منذ فترة، وتريد أن تعرف هل لديه نية جادّة في الزواج بها أم لا؟"، ضحكتُ بكل ما فيَّ من حياة ثم قلتُ لها: "آآآه، القصص إيّاها، الحبّ والغرام، والزّواج والخيانة، وهجران الحبيب وما إلى ذلك من الأمور التي يغتني بها

المشعوذون بسبب وجود الأغبياء في العالم من الرجال والنّساء مثلكما". قالت آنجيلا وهي تُعيدُ الورق إلى علبته: "باللّه عليك يا أسماء، قولي لي هل سيتزوّجني هذا الرّجل؟"، ضحكتُ من جديد ثم قلتُ لها وقد قطّبتُ حاجبيّ: "إذا بقيتِ على هذا الغباء فلن يتزوّج بك حتّى قِطُّ الجيران"، "لا، باللّه عليكِ، وبعيداً عن السّخرية، قولي لي، هل سيتزوّجني فرانكو؟"، قلتُ لها: "ولماذا يتزوّجك يا حبيبتي وقد قدّمتِ لهُ جسدكِ وروحكِ على طبقٍ من فضّة، تذكّري أنّه هو نفسه كَبُر وتغيّرت نظرته إلى الأمور والحياة بشكل عامّ، وهو الآن يريد أن يرتاح منكِ ومن أيّة علاقة أخرى، ربّما سيبحث له عن امرأة لم يعرفها ولم تعرفه قطّ، ليبدأ معها مرحلته القادمة من حياته..."، "أنت مُحبِطة جدّاً يا أسماء، ثمّ تقولين إنّك لا تقرئين المستقبل، أرأيتِ أنّكِ تعرفين كلّ شيء؟"، قالت باسمة، ثم أجبتُها: "هذا ليس بالمستقبل يا حبيبتي، هذا اسمه فشل الرّجاء لدى المجانين والأغبياء، شيء طبيعي وأنت مقبلة على سنّ اليأس أن يهاجمك الخوفُ، وشيء طبيعيّ وهو مُقبلٌ على السّتين من عمره أن يبدأ هو في تغيير حياته والوجوه التي عرفها في ماضيه، انتهى الكلام، وقومي الآن واجلبي لي كأساً أخرى من الماء لكي أشربه وأذهب لحال سبيلي، ودعيني أقل لكِ شيئاً آخر، هذا الرّجل سيتركك لسبب آخر أضيفيه إلى ما ذكرتُه لك: أنت إنسانة بخيلة وكسولة، معقول كنتِ تعرفين أنني سآتي لزيارتكما ولم تُعدّي سوى هذه القهوة التي لا أشربُها، أم أنّ هذا الرّجل لحَس دماغك ولم يترك لكِ فيه ذرّة تعقلين بها حياتكِ؟"، اهتزّت من الضّحك وقامت وهي تصرخ وتحلف: " دعيني أصلح غلطتي أرجوك، باللّه عليك ابقي معنا إلى المساء وسنخرج للعشاء في أفخم مطاعم المدينة"، أجبتُها: "إنّني أمزح معكِ، والحمد لله لا ينقصني شيء في بيتي، والقصد هو أن

تخفّفوا من بخلكم هذا أيّها النّاس، أيُعقَلُ هذا، أينما ذهبتُ لا أجد سوى القهوة السّوداء المُرّة؟ ألهذه الدرجة أصبحتْ حياتكم سوداء ومرّة، أفيقوا من سوادكم هذا، واخرجوا من عالم الشعوذة الّذي أنتم فيه...". قالت وهي ترمقني بحبّ ومودّة: "قلتُ لباولا ألّا تفتح التاروت أمامك، قلتُ لها إنّكِ ملكة والملوك لا يجلسون حول موائد الرّعاع، لكنّها لم تفهمني، أنا كنتُ أعرف أنّك عفيفة ولا تقربين مثل هذه الأشياء، لكن ما الذي سنفعله بجهلنا، اعذريني، لن نكرّر فعلتنا هذه مرّة أخرى أمامكِ."، اقتربتُ منها وحضنتُها، ثمّ قلت لها: "لا عليكِ، وتأكّدي أنني لم أنزعج من الأمر، ولتعلمي أنّ حمّى معرفة المستقبل تصيب الجميع، وهي منتشرة بين كلّ الشّعوب والديانات، وأنا أتفهّم هذا الأمر جيّداً"، ثمّ نظرتُ إليها من جديد وقلتُ ضاحكة: "غيّري شيئاً ما من مظهرك، اعتني بنفسك، مشّطي شعرك المنفوش على الدّوام، واحلقي شاربكِ هذا، والبسي ألوانا زاهية، بدل ما أنت هكذا تشبهين بوّاب العمارة، تغنّجي بعض الشيء، كوني أنثى بدل صورة الذّكر التي اندمجت فيها لسنين عدّة من حياتك، وسترين أن حبيبك سيكتشفك من جديد، ولا تنسي أن تضعي عطراً جميلا بدلاً عن رائحتك هذه التي تُغمي الفئران، ولا تبالغي كثيراً في دور المرأة الشيوعيّة المثقّفة هذا، صدّقيني في الحبّ وفي السّرير تسقطُ كلّ هذه الأقنعة ويتحرّر الرجل وزوجته من كلّ خزعبلات الدّنيا وقناعاتها ولا يبقى الحُكم إلّا للعشق والعشق فقط، هذه هي الحرية الحقّة والسّليمة"، ضحكتْ بقوّة وصخب ، ثم قالت: "والله إنّك لصوفيّة وعارفة وسيّدة العارفات أيضاً، ليت كلامك هذا أتاني في زمن غير هذا الزّمن"، ضحكتُ وأجبتها: "أكيد أنت مجنونة، الزّمن نحن من نصنعه، هيّا دعيني أخرج قبل أن يتأخّر الوقت"، قبّلتُها هي وباولا، ثمّ خرجتُ ولسان حالي يقول: "يا للعجب، ما

الّذي فعله الصّوفيّون يا ترى حتّى بات الجميع يخلطون بينهم وبين السّحرة والمشعوذين؟"!

تذكّرتُ هذه الواقعة حينما كانت تصلني بعض الرّسائل من "أديبات" و"أدباء" يسألنني فيها عن بعض الأمور المستقبليّة والحياتيّة الخاصّة، باعتبار أنّه ذاع وشاع بين بعض أهل الحرفِ نهجي "العرفانيّ" المعاصر، وكنتُ أبادر لمحوها وتجاهُلِها باستمرار، وفي الكثير من الأحيان كنتُ أحظرُ أصحابها، ولسان حالي يتساءل ويستهجن الأمر ويقول: لا بدّ أنّ النّاس يخلطون كثيراً بين ما هو عرفان وبين ما هو شعوذة، وهذا مردُّه بدون أدنى شكّ إلى الانحرافات الأخلاقيّة التي شاعت بين بعض مدّعي التصوّف قديماً وحديثاً وكذا في حقبتنا المعاصرة، وهُم لا يعلمون حقّاً أنّه لا يُخْرِجُ العارفَ من حضرة الله، إلّا ميلُه إلى أمور الشّعوذة والطّلاسم والسِّحر، وبقولي هذا أدعو إلى إعادة النّظر في كلّ الموروث العرفانيّ القديم وما تحويه الكتب الأولى من خبال وحمق ودجل كان النّاس يرونهُ كرامات في العديد من أعلام التصوّف، ولتعلم يا عزيزي القارئ أنّ العارف من لا يُعَرِّفُ نفسه بهذه الصّفة ويُنكرها باستمرار وإن أقرّها فيه الغيرُ، وهو أيضاً من يبتعدُ عن التدنُّس بالكرامات ويسعى إلى إخفاء أثرها عليه حينما تطفو منه فوق السّطح، وإذا حدّثَ بها فإنّه لا يفعلُ ذلكَ إلّا مع من يرى فيه العقلَ والبصيرة العرفانيّة الكافية لأن تجعله من أهل الذّوق والكشف. واعلم أنّ العارف إذا رأى أو كشَف فإنّما يرى ويكشِفُ بنور الله، وهو أقرب النّاس إلى الحياة الحقّة، لا غلّو ولا شطط، والصوفيّ ليس بالضّرورة براهب يعتزل الحياة، وإنّما هو فاعل فيها حتّى وإن قلّ اختلاطه بالنّاس أو ظهوره بينهم، وهو الّذي إذا قرأتَ شعره، قلتَ إنّ هذا ليس بشعر وإنّما هو أقرب إلى سردِ

الوحي، وإذا قرأتَ سرده أو نثره، قلتَ لكأنّ روح الله فيه، لذا فإنّ الصّوفيّ الحقّ ليس بشاعر وإنّما هو سرّ الشّعر، بل سرُّ الحرف والنّون والقلم، واعلم أيضاً أنّ العارف الصّادق هو من تجاوز الثّوب والخرقة، وأصبح ابن عصره، ينظرُ بعين الله، ويُجدِّدُ في الكون بما يراه عمل الخالق في استمرارية وتطوير خلقه والحياة فوق كلّ شبر من الوجود وبين كلّ شعوبه وكائناته. والرّجل الصّوفيّ كلّما تمكّن في معرفته بخالقه، ترفّع عن سفاسف الأمور، فلا تجدهُ يكتبُ طلسماً، أو يفتحُ مندلاً، أو يقرأ فنجاناً، ولا يفتحُ عيناً ثالثة ولا رابعةً، ولا يمارسُ أيّ طقسٍ كان من طقوس السّحر والشّعوذة، لأنّه سلطانٌ بين شموس الحضرة الإلهيّة، وإنّما يترُكُ كلّ تلكَ الأعمال لضعاف النّفوس، ولمن لا يقدّرون بجهلهم عواقبَ الأمور ومخاطرها، وهو المترفّع عن صغائر الأعمال، لأنّ قلبه فانٍ في الله، وبفنائه هذا وصل إلى مرحلة الفقر الأكبر، لا حاجة له في هذه الدّنيا إلّا بخالقه.

أقول هذا أيّها الشيخُ الجليل ماكيدا، وأنت تراني الآنَ أفتحُ قارئيَ أو مكتبتي الإلكترونيّة المتحرّكة، وأُخرجُ منها كتاب سوزان كليراك، لنقرأه معاً وتقول لي رأيكَ فيه. الكتابُ باللّغة الفرنسيّة وهو بعنوان (جيفّي، صديقي رئيسُ الملائكة، شاعرُ ورسّامُ الرّوح). وقد أعدّهُ وقدّمه هديّةً للقرّاء في كلّ مكان السيّد سيرج هاني حفيدُ المُؤَلِّفة. من تكونُ سوزان؟ أسمعكَ تسألني أيّها الشّيخُ الطيّب، أجيبُك وأقول: " هي الزّهرة التي تفتّحتْ وفاح أريجُها في المدينة التي رأيتُ فيها النّور، آسفي العشق والمحبّة، وُلدَتْ بين ربوعها عام ١٩١١ في فترة كانَ الناس قد ابتلوا فيها بحمّى التّيفوئيد، وكان والدها من الموظّفين الفرنسيّين السّاميين الّذين قدموا إلى المغرب قبل عهد الحماية بقليل، ونزل في آسفي وقطنَ في المنطقة البرتغاليّة، حيث قصر البحر وتلّ

الفخّارين وباب الشّعبة والأسوار العتيقة التي تحكي تاريخاً عريقاً تشرّبتْ به روح سوزان منذ طفولتها إلى سنوات الشباب الأولى. وفي كتابها هذا تحكي عن علاقتها بمدينتها الأثيرة، وتقول عنها إنّها مدينتها الرّوحيّة التي جعلت منها فتاة وسيطةً تتخاطبُ وتتواصلُ مع الأرواح. ولقد مرّت فيها بحالات تجاوزيّة صوفيّة كثيرة، سواء حينما كانت طفلة تدرسُ في أولى المدارس التي أقامها نظام الحماية في المدينة أو داخل بيتها. وقد تزوّجتْ بالسيّد مارسيل كليراك عام ١٩٣٢، والّذي كان من رجال القضاء في مدينة الجديدة، وذهبت لتعيش معه هناك، ومارسيل نفسه كان قد عُرفَ بتجاربه الرّوحية في الاطّلاع على عوالم الفضائيّين والأفولوجيا في المغرب، وقد وثّق لهذا الأمر الكتابُ الّذي صدر عام ١٩٧٦ لصاحبه جي تاراد وهو بعنوان (أبواب أطلنتيد). لكن يا شيخي العزيز ماكيدا، ثمّة شيء لا أستوعبهُ في تجربتها الجميلة هذه، فهي تقول إنّها تعرّفتْ على "رئيس الملائكة" جيفّي في جلسة من جلسات تحضير الأرواح التي كانت تُقَام في منزل الرّئيس آمْبْياليه عام ١٩٥٢، ولأنّني أعرفُ الأسبابَ العلميّة التي تكمنُ وراء تحرُّكِ الموائد الرّاقصة فإنّي أعتبرها كالتّاروت نوعاً من التّسليّة واللّعب وكذا المُخَاطرة التي تُخرِجُ العارفَ من حضرة الله، لذا فإنّني أبتعد عنها ولا أخالطُ أهلَها وأخاصمها ولا أقربها أبداً، وإلّا فكيف باللّه عليك يحضر رئيس من رؤساء الملائكة إلى هذه الجلسات؟ شيء لا يتقبّله منطقُ أهل الرّوح والحرف العلويّ!، هل تسمعني أيّها الشّيخ ماكيدا؟ هل أنتَ معي الآن؟". "طبعاً، أنا معكِ، ولكن علينا أن نتناول خطوة خطوة ما صرّحتْ به ابنتنا الغالية سوزان، لقد قالتْ لكِ ولكلّ القرّاء إنّها وُلدتْ في آسفي، وهي بهذا تصرّحُ بأنّها مغربيّة، ثمّ قالت فيما تقدّم من صفحات الكتاب إنّها درست في فرنسا

وإن والديها فرنسيّان، وهي بهذا تقول إنّها إلى جانب كونها مغربيّة فهي أيضاً فرنسيّة، ثمّ أضافت وقالت إنّ والدها كان من موظّفي المصالح الجمركيّة وكان مكلّفاً بنقل نظام الجمارك الفرنسيّ إلى المغرب وترسيخ قواعده الأولى في المدن المغربيّة ذات القيمة الاقتصاديّة والسّياسية العالية بما فيها آسفي ومازكان الجديدة حالياً، باعتبارهما مركزيْنِ حيويّيْن مهمّيْن زاخريْن بالثروات والمعادن. لكنّها في تصريحاتها هذه تقول لكِ أيضاً إنّها من أسرةٍ جاءت إبّان فترة الاستعمار الفرنسيّ للمغرب، أليس كذلك؟ إذن هذه هي نقطة الوجع الأوّل في حياة سوزان، ومن هُنا عليكِ أن تنظري إليها، إنّ سوزان منذ طفولتها الأولى وهي بين قريناتها في المدرسة لا شكّ كانت تسمع ما يُقال عن الوجود الفرنسيّ في المغرب آنذاك، لكنها كانت تقع في حيرة من أمرها، وهي التي لا يدَ لها في الوضع برمّته، فقد وُلدتْ ووجدتْ نفسَها ابنة لأسرةٍ كولونياليّة وباتت تبحثُ لنفسها عن طريقٍ للخلاص من كلّ هذا الجحيم الدّنيويّ، فلربّما لا تعرفين يا عزيزتي ما معنى أن يكون المرء في بلدٍ أتى إليه أهلُه غزاة؟"، "ربّما يكون في كلامكَ بعض من الصحّة، لكنك لا تعلمُ أنّ سوزان لم تكُن تشعرُ بأنّها غريبة عن المغرب، فهو الأرض التي وُلدت فيها وهو بلدُها، ترعرعت بين أهله، وفتحت عينيها على عاداته وتقاليده، وكان لها فيه الأصدقاء والصّديقات والأهل والأحبّة، إنّها تعرفُ كناوة وعيساوة وطرق صوفية أخرى، وتعرف الأعياد الإسلاميّة، وقلبها يخفق سعيداً كلّما سمع صوت الأذان في المساجد، حتّى أنّه في كثير من الأحيان كان يخيّلُ لي أنها كانت ترى أنّ أبناء البلد همُ الأجانبُ فيه وهي الأصلُ!". "طبعاً، لا بدّ أن تُفكّرَ بهذه الطّريقة، فقد كان الفرنسيّون إبّان عهد الحماية لا يعتبرون أنفسهم من الأجانب في المغرب، وإن كان الأمرُ فيه نوعاً من

التناقض بين ما قرّره القانون الفرنسيّ في هذا الإطار وبين القانون الدّولي العامّ الّذي كان يرى أنّ دولة الحماية تبقى على الرّغم من ذلك عضواً في العائلة الدّوليّة ولها رعاياها الّذين يدينون لها وحدها بالولاء والتبعيّة، كما أنّ للدّولة الحامية شخصيتُها المستقلّة ورعاياها المتمتّعين بجنسيّتها، وبناء على ذلك كان يجب أن يُعتَبَرَ رعايا فرنسا في المغرب من ضمن الأجانب، لأنهم لا يتمتّعون بالجنسية المغربيّة المتميّزة تمام التميّز عن الجنسية الفرنسيّة وغيرها من الجنسيات الأجنبيّة، ومعاهدة الحماية المبرمة بين المغرب وفرنسا واضحة في الدلالة على ذلك."، "هل تريد أن تقول بهذا إنّ الفرنسيين آنذاك، باعتبارهم لأنفسهم غير أجانب في البلاد كانوا يستهدفون عبر "قانون الأجانب" القضاء على الكيان القوميّ المغربيّ لتصبح البلاد بعد ذلك قطعة من التراب الفرنسيّ؟!". "نعم، لكن سوزان بعيدة كلّ البعد عن كلّ هذه المطامع، ولأجل هذا كانت تبحث في الموائد الرّاقصة عن طريق للخلاص الرّوحيّ الكامل، لقد كانت تحبُّ المغرب، وهي تعتبر نفسها ابنته الشّرعيّة، ولقد كانت فرحة للغاية حينما التقت بجيفّي، أو ما تُسمّيه هيَ برئيس الملائكة، لكن قولي لي أنتِ، لماذا تعترضين على الموائد الرّاقصة؟". "لا أعترضُ عليها، بل أرفضُها رفضاً باتّاً، كما أرفضُ العديد من الأشياء المشابهة لها التي تورّطَ فيها العديدُ من أهل التصوّف، وأنتَ سيّد العارفين، تعلمُ أنّ الأمر له علاقة وشيجة بمذهب الأرواحيّة التي سنّ قوانينها وطقوسها آلان كارديك عبر مُؤلَّفِه (كتاب الأرواح)، وهو الكتابُ الّذي أقرّه وأحبّه الأرواحيّون وعارضه العديد من أهل الفكر والحصافة، ضِفْ إليه أربعة كتب أخرى هي (كتاب الوسطاء)، و(الإنجيل وفقاً للأرواحيّة)، و(السّماء والجحيم)، ثم (سِفر التكوين). والرّوح وفقاً لكارديك أو هيبوليت

ليون دينيزار ريفاي –وهذا اسمه الأصليّ–، هي كائن حقيقيّ محدّد ومعيّن، وفي أحوال خاصّة يُمكنُ التحقّق من وجودها بواسطة السّمع والبصر واللّمس. والأرواح عندهُ لها درجات مختلفة، وليست متساوية في القدرة ولا في الذّكاء ولا في المعرفة والأخلاق. ولا تبقى على الدوام في الدّرجة نفسها بل جميعها يرتقي مجتازاً طبقات التدرّج الأرواحيّ على اختلافها، وأمّا الارتقاء فيتمُّ عن طريق التأنسُن الذي يُفرَض على البعض كتكفير وعلى البعض الآخر كإرساليّة وعليه تكون الحياة في المادّة بمثابة مصفاة أو مدقّ تخرج منه الرّوح مطهّرةً إلى حدّ ما، ويُسْتَنْتَجُ من هذا أنّه ما من إنسان إلّا وعاش حيوات عديدة وسيعيش حيوات أخرى في درجات مختلفة من التقدّم إمّا على هذه الأرض أو في عوالم أخرى". "هذا كلام جميل جدّاً، ولا غبار عليه يا عزيزتي، فعلامَ الاعتراضُ مرّةً أخرى، أريد حججاً وحفراً بإزميل القلب والرّوح المتّقدة". "هل تتذكّر يا عزيزي ماكيدا، دانييل دونغلاس هوم؟ هذا وسيط أرواحيّ كان على قدر عالٍ من الوعي والتوهّج والرّصانة وكانت له آراء عديدة حول فقه الأرواحيّة الذي أتى به آلان كارديك، حتّى أنه قال إنّ كارديك كان هُو من يُملي على الوسطاء الرّوحيين المنضمّين إلى مجموعته آراءه وأفكاره بشكل تجاوزيّ، وأنهم لم يكونوا سوى أداة كان يستخدمها روحيّاً من أجل كتابة أفكاره الخاصّة، وهذا ما يفسّرُ كيف أنه كان يصحّح وينقّحُ بعض ما كان يُكتب من آراء غزيرة ومتدفّقة في شتّى مجالات المعرفة. لعلّك لا تعرف يا عزيزي ماكيدا أنّ أفراد مجموعته من الوسطاء كانوا من كبار مثقّفي زمانه من أهل الفلسفة والفنّ والأدب، أتتذكّرُ فيكتوريان ساردو الّذي رسم لوحة من إيحاء بيرنارد بليسّي، وأسماها ببيت الموسيقار موزارت فوق كوكب المشتري؟ هذا الرّجل كان من وسطاء كارديك، وإن كان

يتحرّجُ في التصريح بذلك. أمّا بالنسبة لتجربة سوزان كليراك، فهي تتحدّث فيها عن ما يسمّيه الأرواحيّون بلوح الأويجا، وهو أحد أشهر الوسائل المنتشرة شعبياً للتّواصل مع الأرواح، وكل ما يُمكنني أن أقوله في هذا الصّدد هو أنّ اللّوح لا يحرّكهُ أيُّ كائن غيبيّ كيفما كان نوعه، وإنّما نفسه المُحَضِّرُ هو من يُحرّكُ اللّوح عبر حركة إنسانيّة لا إرادية هي الإيديوموتور، أمّا بالنّسبة للمعلومات المتدفّقة فهي تعود إلى قدرة الإنسان، كلّ إنسان على الإدراك الغيبيّ والتجاوزيّ، يكفي فقط أن يكون على قدر من الصّفاء الرّوحيّ ليحدث الأمر المطلوب، ولعلّك تعلم ياعزيزي ماكيدا كيف أنّ هذه الوسائل عادة ما تنتشر في أيّام الحروب، والأوبئة والأزمات التي يغيب فيها الكثيرُ من النّاس عن أهلهم سواء بالموت أو السّفر أو ما يشابههما، وهو الشيء نفسه الّذي حدث لسوزان كليراك، التي بعد وفاة أبيها وتدهور الأحوال السياسية لكلّ الفرنسيّين المقيمين في المغرب أثناء فترة سعي المغاربة إلى الاستقلال واندلاع موجات النضال والمقاومة في كلّ البلاد، لجأتِ المسكينة إلى الموائد الرّاقصة وكان ما كان، وبعد أكثر من جلسةٍ حضر رئيس الملائكة (جيفّي)، وأصبح معلّمَها وملهمَها الأوّل في الشّعر كما في الرّسم، بحيث أوحى لها بأزيد من ٣٠٠ لوحة وقصيدة، وهي الّتي لم يسبق لها أن كتبت نصّاً، ولا رسمت لوحةً!". "أتشكّين في حضور جيفّي وهوّيته يا أسماء؟". "أبداً، والحمد لله أنّه حضر، لينتشلها ممّا كانت مقدمة عليه من الضّياع، وليتكَ تعرفُ الهلاك الّذي يصاب به من يمشي في هذه الطّريق سواء كان مسيحياً أو مسلماً أو كيفما كان اعتقاده ودينه. إنه الجنون عينُه، عليك أن تقرأ كتاب الدكتور كارل ويكلاند "ثلاثون عاماً بين الأموات" وقد وثّق فيه أنواعاً كثيرة من الأمراض العقليّة التي يصاب بها من يُدمن ممارسة

هذه الأشياء، وكذا كتاب هيو لين كايسي وهو ابن الوسيط الأمريكي الشّهير إدغار كايسي، وهو بعنوان (المغامرة نحو الدّاخل). ولا تنسَ ما قالته الوسيطة سوزي سميث وهي تحذّر قائلةً في كتابها "اعترافات وسيطة": "حذّروا النّاس من لوح الأويجا والكتابة الأوتوماتيكيّة قبل أن يتعلّموا جيّداً كيف يحصّنوا أنفسهم. إنّ المحاولات البريئة للتواصل مع الأرواح هي خطيرة بقدر التلاعب بقنابل يدوية. لقد اختبرتُ هذه التجربة الصّعبة، وعانيتُ أسوأ المشاكل التي يمكن مواجهتُها خلال العمل بهذا المجال. لقد حذّرتُ في السّابق بأنّ هذه الممارسة تؤدّي إلى اضطرابات عقليّة، ولو استمعتُ للتّحذيرات لكُنتُ تجنّبتُ ما عانيتُه من مآسي...". "لكن حسب ما اطّلعنا عليه من أعمال جيفّي، رفيق سوزان الرّوحي يُمكننا القول أيضاً إنّ هذه الموائد ليست لها فقط جوانب سلبيّة وخطيرة، ولكن هناك أيضاً بعض من الجوانب الإيجابيّة، وإنه لتحضرني تجربة السيّدة بيرل كوران، وهي إلى حدّ ما تُشبهُ تجربة السيّدة سوزان، إذ أنّها بدأت تستلمُ رسائل من روح تُدعى بيشنس ورث، وتزعم بأنّها ولدتْ في انكلترا عام ١٦٤٩. هذه الرّوح بين عامي ١٩١٢ و١٩١٩ أملت على كوران الكثير من القصائد والقصص والروايات ملأت بها أزيد من ٢٩ مجلّداً، وقد علّقت صحيفة نيويورك تايمز الصادرة في ٨ تمّوز ١٩١٧، على أحد هذه الأعمال الأدبية معتبرة إيّاها من المآثر الأدبيّة البديعة. وقد كان النّاشر الشّهير وليام ريدي من أحد أشدّ المعجبين بأعمالها.". "طبعا هناك العديد من هذه القصص الإيجابيّة، هل تعرف الحاج ملّا آقا جان؟ هذا السيّد كان يتلقّى علومه مباشرة من الإمام موسى بن جعفر (عليه السّلام)، اقرأ كتاب السّيد حسن الأبطحي (معراج الرّوح)، وسترى كيف أنّه عند ختمه لجلسة من جلساته العلميّة، انتبه لمريد

من مريده عَلِم أنه قد رآه روحيّاً وهو يتلقّى نصّ الخطبة من الإمام موسى، فقال له بالحرف: "ببّغاء قرب مرآة أنا / قلتُ ماقال مُعلّمُ الأزل"". "ومن لا يعرفُ الحاج ملّا آقا جان! طبعاً هذا الأمر لا علاقة له بالموائد الدّوّارة، وإنّما هو كشف روحيّ عرفانيّ خالص، لكنه يُثبتُ تواصل الأرواح العُلويّة مع أهل العلم والحكمة الشّامخيْن. تعاليْ لنتحرّك قليلاً ولنذهب لإكمال حديثنا أمام مسرح الماسّيمو: يا لعظمته، أترين هيبة دار الأوبرا هذه، أيّة أرواح بشريّة أعلت صرحَها، تلك كانت حقّاً كينونات روحيّة في غاية التّطوّر والتّقدّم، اليوم لا أحد يستطيع أن يبني بناية بهذا الشّكل ويحدّد بها أهدافاً تعليميّة إرشاديّة وتنويريّة محضة ترقى بذائقة الإنسان وفكره وتقوده إلى مدارج السموّ الرّوحيّ! لنعد الآن إلى صديقتكِ الأسفيّة، وقولي لي: ما تفسيركُ أنت لهذا النّوع من التّواصل الأرواحيّ لديها أو لدى غيرها، وكيف تنظرين إلى جيفّي رفيق سوزان الملائكيّ؟". "مشكلة الإنسان تكمن في كونه لا يعرفُ نفسهُ وقيمتَها، إنّه ينظُرُ إليها ككيانٍ منفصلٍ عن الكون وهذا في حدّ ذاته يعتبر حاجزاً منيعاً يحرمه من التحكّم في قواه العليا، فهو لا يعرفُ أنّه بمجرّد أن يعيد وصل نفسه بالكون سوف تنهار كلّ الحواجز الزّمنيّة والمكانية بينهما، ولن يعود في حاجة إلى الرّكض لا وراء الأرواح الهائمة حول الموائد الرّاقصة، ولا وراء الجنّ والشّياطين كما يفعل السّحرة والدّجالون وكثير من الشّامانيّين ورجال التصوّف لا "الصّوفية" وهنا أميّز بين الاثنين باعتبار رجال النّوع الأوّل مدّعون، ورجال الصّوفيّة فانون متخلّقون بأخلاق ربّهم.

نفسُ الإنسانِ لمن لا يعرفُها هي مندمجة مع نفس كونيّة كُبرى ومنخرطة في خطّة واسعة وشاملة، وهي في كيانها الخفيّ تُجَسِّدُ الأنثروبوس أو ما سمّاه

الهرمزيّون بالصّقلوب أو العفريت الحارس لدى الإغريق أو رئيس الملائكة إذا ما أردنا استخدام تعبير جاكوب بوهم، أو النّفس الكلّيّة والذّات العالية التي تشمل كينونة الإنسان وهو في حالة اندماج مع بقية النفوس الكلية لبقيّة بني البشر. وهذه النّفسُ الكلّية، هي التي تحدّثتْ مع سوزان كليراك حينما كانت حول المائدة الرّاقصة في بيت الرّئيس آمْبْياليه، وقد فعلتْ هذا لكي تنتشلها من براثن تحضير الأرواح، وتقودها إلى صلاحها الأعلى ونجاتها الكاملة. إنّها روحُها العليا، والجانب المتألّه في كينونتها الآدميّة والتي عادة ما يسمّيه النّاسُ كلّ حسب معتقداته الدّينية برئيس الملائكة أو بالقرين الملائكيّ، في حين أنّ الأمر ما هو إلّا سوزان نفسها، وقد تجلّت لها روحها المتألّهة واتّخذت شكلاً وصورة مُؤَنْسَنَيْن لتشرع في مهمّة الإرشاد والإصلاح الرّوحي، وهو ما يُمكن أن يحدث لكلّ إنسان يسعى بكل ما فيه من محبّة إلى الخلاص من ربقة الجسد الطّينيّ وشهواته ونزواته.". "جميل جدّاً، لكن لماذا هذا الجانب المتألّه من الذّات يُسمّى لدى سوزان بجيفّي؟". "هو جيفّي لدى كلّ روح متحرّرة، وسوزان هي أنتَ وأنا وكلّ النّاس المتعطّشين للخلاص، وجيفّي هو الرّوح المتألّهة بداخلنا، إنّه المعلّمُ الدّاخلي. أتعرفُ ما معنى اسم سوزان؟ إنّها الزنبقة، وهي رمز مريميٌّ عذريّ نقيّ طاهر بامتياز. وهل تعلم ما معنى اسم جيفّي؟ إنه سعادة العطاء. وكلّ قصيدة أملاها جيفّي على سوزان، هي طريقة جديدة من طرق التّعليم في المدرسة الإلهيّة، وكلّ لوحة ألهمها إيّاها هي شعلة جديدة في طريق الصّعود إلى الأعالي وبلوغ سدرة المنتهى. وسوزان تعرفُ هذا جيّداً، وقد خلصت إليه عبر العديد من القراءات المكثّفة لكتب الفلسفة والطبّ واللّاهوت وما إليها. وتعرفُ أيضاً أنّ الإنسانَ مُلزمٌ بالدخول إلى كينونته من أجل خوض عملية خاصّة وشاقّة من

التّهذيب عبر الذّات العليا ليعود إلى التجدّد الرّوحي، ويصبح الجسد هيكلاً مقدّساً، حتّى إذا ما طرق اللهُ بابَه وجد فيه صاحبَه حاضراً، لذا فليبق كلّ في هيكله أو بيته، ولا يذهب إلى الموائد الدّائرة ولا إلى أوراق التاروت يسأل فيها عن الماضي أو المستقبل، عليكم أيّها الناس بالحاضر، ففيه يسكن الله، والحاضر يوجد في هياكلكم أو بيوتكم، وكلّ هيكل يقتضي الحضور والوعي الكامل.". "ما أجمل ما نطق به روحك الأعلى يا أسماء، اسمعي الآن ما يقوله جيفّي لسوزان في قصيدة (القفص) التي سأقرؤها عليكِ باللغة الفرنسيّة ما دمت تعيشين في هذه الفترة عودة لغويّة جديدة لإحياء لغتكِ القديمة الفرنسيّة التي أخذتها منكِ لسنوات عدّة اللّغةُ الإيطاليّة، ولا تنسي أن تمعني النّظر في اللوحة التي رسمتها بإلهامٍ من جيفّي لتؤكّد على سموّ المعاني وعمقها:

**((Je t'ai ouvert la cage**
**Ma tourterelle**
**Et tu as pris l'envol.**
**Sais-tu le poids de mon Amour?**
**Non, tu ne peux le connaître**
**Encore moins le comprendre.**
**JE SUIS L'IDEAL DE TON ETRE**
**Je suis le seul qui existe en toi**
**Aussi t'ai-je initiée Ô ma créature**
**Moi-même.**
**Je t'ai ouvert la cage**
**Ma tourterelle**
**Et tu as pris l'envol.)).**

((فتحتُ لكِ القفصَ
يا يمامتي

وبدأتِ في الطّيران
أتعلمين ثقلَ حبّي أو قيمتَه؟
لا يمكنكِ أن تعرفين ذلك
ولا أن تفهمينه
أنا مثال كينونتكِ
أنا الوحيد الموجود فيكِ
وأيضاً أنا من علّمتُكِ
يا مخلوقتي
أنا بنفسي
فتحتُ لكِ القفص
يا يمامتي
وشرعتِ في الطّيران.)).

"ما أبهى ما قرأتَ أيّها الشّيخُ ماكيدا، إنها رحلة الرّوح نحو الأعالي، وتحرّرها من قفص الجسد الطّيني الّذي يسجن الكثيرُ من الناس أنفسَهم فيه، لكن كلّ واحد فيهم يحتاج إلى أن يعثر على مرشده الأعلى، كما عثرتْ سوزان على جيفّي. إنّه بالدّاخل، شمعة تنتظر من يُشعلُ فتيلها لينير الكهف المظلم. واسمع ماذا يقول لها في قصيدة (زنمردة) وغص ببصيرتك في لوحته:

**((Gentille enfant,**
**Où veux-tu que j'aime en dehors de toi ?**
**Être uni à toi, seul compte pour Moi.**
**Car je suis d'abord toi,**
**D'abord je suis ton âme-sœur, ton double.**
**Et je connais Dieu.**
**Dieu est Mon Être, Il est Moi,**

**Moi en toi. Tu vis de Ma Vie,**
**Tu vis de Mon Amour.**
**Tu es en ce monde la seule,**
**Et dans l'autre, je suis le Seul.**
**Alors!)).**

((أيّتها الطّفلة اللّطيفة،
أين تُريدينني أن أحبّ خارجكِ؟
أن أكون موصولاً بكِ، هذا كلّ مناي
فأنا قبل كلّ شيءٍ أنتِ
وقبل كلّ شيء أنا روحُكِ التّوأم، نصفكِ الآخر
وأعرفُ الله
اللهُ كينونتي، إنه أنا
أنا بداخلكِ.
تعيشين بحياتي
تعيشين بمحبّتي
أنتِ في هذا العالم الوحيدة
وأنا في ذاك العالم الأوحد
ماذا إذن؟!)).

بهذه القصيدة واللّوحة أنهي رحلتنا في كتاب سوزان ومرشدها الأعلى جيفّي، وقد اطّلعنا على كلّ لوحاته، وقرأنا ماجادت به قريحتها من قصائد في غاية الإبداع والشّموخ الرّوحيّيْن، وعرفنا من يكون جيفّي، وكيف يُمكنُ لهذه التجربة أن تتكرّر مع أكثر من مبدعٍ، في كافّة مجالات العطاء والخلق، وعرفنا أيضاً أن الأمر لا علاقة له لا بأرواح ولا بموائد دوّارة ولا بأيّ شيء

من هذا القبيل، بقدر ما فيه تجلّ لقدرات هذا الإنسان الّذي لم يُكتَشَف بعد من كماله وبهائه وعظمته ورقيّه أيّ شيء.". "طبعا يا عزيزتي أسماء، والآن قبل أن تعودي إلى بيت المحبّة والإبداع دعيني ألتقطْ لكِ صورةً، أتوّجُكِ بها طفلة ترتقي سلّم الإبداع بكلّ ثقة وتؤدّة، وتسعى هي الأخرى إلى الحفاظ على شمعة الخَالق متوهّجة بداخلها. هيّا قفي: أنتِ الآن أميرة في بوّابة ثُماني الشّمس، تُظِلّك شجرةُ الحياة، لك أن تأكلي من ثمارها ما شئتِ من المعرفة في المدرسة الملكيّة الإلهيّة. ولتعلمي أنّ من ذاق عرفَ، ومن عرفَ كتَمَ، وأنّه لا حاجة لعارف مخلصٍ بالبوح، ودعكِ من هؤلاء الّذين يركضون خلف الأرواح والجنّ والملائكة، إنّهم لا يعرفون عن الله الحقّ شيئاً، لأنّ من عرف ربّهُ انمحقت في قلبه كلّ العوالم وما بقي فيه سوى الله، ألم تري كيف أنّ جبريل نفسه ساعة الحقيقة قال للنّبيّ "يا محمّد تقدّم فإنّكَ أكرم على الله منّي"، وكان يقصدُ: "لا يجوزُ أن يكون العابد الحقُّ في حضرة ربّه ومعه شيء آخر، روحاً أو ملكاً كان أو عالَماً بأسره، تذكّري أنّه ما في الجبّة إلّا الله!".

## ملحق الصور واللوحات



**في شرفة من شرفات كنيسة سان كتالدو المطلّة على شارع ماكيدا**







**نموذج من الدكاكين والمطاعم العريقة**



**جنيفرا جيلّي: عازفة القيثارة**






أمام مسرح الماسّيمو



لوحة القفص



لوحة زنمردة



أمام ثمانيّ الشّمس

# (II)
# وقفات خيميائيّة في الشرّ وقضاياه

## (١)
## الحرفُ جاهز والطّارقُ خلف الباب

ليست هذه هي المرّة الأولى التي أكتبُ فيها فصول دراسة ما تُناقش قضيّة فكريّة معيّنة وأجلسُ أنتظرُ صاحبَها الّذي سيطلبُها منّي، وإن كنتُ لا أعرفُ عنه شيئاً، لكنّ ذاتيَ العليا تُعْلِمُني بأنّ الطّارقَ لا حتمَ سَيَأتي وبأنّ ما أنا بصدَد كتابته مُوَجَّه له بشكل خاصّ، إذْ من خلاله سيصلُ إلى أكبر عدد من القرّاء لتعمّ الفائدة وينتشرَ وهَجُ الحرفِ في كلّ مكان، وهو الأمر الّذي حدثَ لي هذه المرّة أيضاً بشأن هذه الدّراسة التي بين يديك. وإنّي لأذكُرُ كيفَ أنّني في الوقتِ الّذي كنتُ منهمكة في كتابة فصولها بشكلٍ تلقائيّ وتسلسُليّ رامية إلى هدم بعض المفاهيم المتجذّرة في الفكر الإنسانيّ والتي أعتبرها من بين أهمّ أسباب هذا الخراب الروحيّ الّذي أصاب الإنسانيّة، وَجَدْتُني أُمَحْوِرُ كلّ الفصول حولَ قضيّة الشرّ من وجهة نظرٍ خيميائيّة إيزوتيريّة محضة إلى أن أتى "صاحبُ الأمر" وطرَقَ بابي، وأعني به هنا المفكّر والفيلسوف العراقيّ د. عبد الجبّار الرّفاعيّ (١): عرضَ عليّ بعض كتبه القيّمة، وأرسلَ لي أعداداً معيّنة من مجلّة (قضايا إسلاميّة معاصرة) (٢)، ثمّ اقترحَ عليّ الكتابة عن "الشرّ" في العدد الجديد منها. ابتسمتُ وسألتُ نفسي سؤالاً مجازياً لا أقلّ ولا أكثر: أيُّنا كان أعلمَ بما يشغل بال

الآخر، وأيّنا كان ينتظرُ الآخر حقّاً؟ أجبتُ على الفور وقلت: هذا عارفٌ باللّه يطرقُ بابي، وحرفي جاهزٌ الآنَ ورهن إشارتِهِ، وقد كتبتُ الكثير في الموضوع الّذي اقترحه بشأن المجلّة، وما بقي قابعاً في بئري، وجب اليوم قبل الغد سكبه فوق اللّوح الإلكترونيّ. وهكذا فعلتُ، وأنا أتساءل: هل يلتقيان شرٌّ مُطلَق وعِشق مطلَق؟! وهل يُمكنُ لعاشق محترق بالمحبّة، أن يتحدّث عن الشرّ وقضاياه في الكون والوجود؟! إنّها حقّاً معضلة المعضلات، لا سيما وأنّ العارف الحقّ لا يرى في الوجود أيّ شرّ، بل الكلّ عنده خيرٌ، يراهُ إزاراً من النّور والبهجة والفرح قمّط به الخالقُ الكونَ منذ الأزل. لكن والحال أنّ الكثير من النّاس لا يرون ما يراه العارفُ، ولا يؤمنون بما يؤمن به، فلا بدّ له أن ينزلَ هذا الأخير من العالم الأعلى إلى العالم الأدنى، ويخرجَ من رحابة النّقطة، ويدخل على مضضٍ إلى ضيق العبارة للتّعبير عمّا لا يُعَبَّر عنه بالكلمات، ويُقَدِّمَ أجوبةً لمن يسأل عن هذا الله الذي أصبح النّاسُ ينعتونه بغير العادل، المختفي خلف صمته المريب أمام كلّ ما يجري في الكون من شرور بما فيها الحروب والكوارث الطبيعيّة والأمراض والمصائب الحياتيّة اليوميّة وما إليها، ممّا دفع بالغالبيّة العظمى إلى إنكار وجوده بالكامل، ماداموا لم يستطيعوا أن يجدوا لليوم إجابات كاملة وتفسيرات منطقيّة تُبرّر سماحَه بحدوث كلّ هذه المآسي في حياة البشريّة دون التدخّل من أجل إيقافها وهو الّذي نسب إليه أهل الإيمان واللاهوت والعرفان خلق الكون بكلّ عوالمه!

من حقّ أيّ شخصٍ أن يرى الأمور بهذه الطّريقة ويفسّرها من منظوره الخاصّ، ومن حقّه كذلك أن ينكرَ الخالقَ مادام لا يرى فيه الأهليّة للحيلولة دون وقوع الشرّ، وحدوث الألم، وتفشّي الأمراض والأوبئة، واندلاع الحروب

في كلّ مكان. ومن حقّه أيضاً أن يطالب أهل الحقيقة بالإيضاح، وسؤالهم من أين لهم بالفرح في عالم يضجُّ بالألم، وبالسّكينة في كوكب تفجّرهُ الحروب، وتقتلهُ الأمراض. ومن حقّ أهل الحقيقة أن يدلوا بآرائهم في هذه القضيّة الشّائكة كلّ وفق إشراقة النّور في قلبه وعلو همّته وقوّة عزيمته وعمق عرفانه. ومن هذا المنطلق أقول إنّ أوّل طريق لكشف السّتار عن هذه الإشكالية معرفة النّفس، ومالم يعرف الإنسانُ نفسَه فإنّه لن يمكنه بأيّ شكل من الأشكال أن يعرفَ ربَّه، ولن يمكنه بالتّالي أن يفهمَ الكون وآليات الخلق وحركة الخالق فيه، وسيبقى هكذا يخاصِمُ خالقَه ويراه السبّبَ في كلّ ما يلحقُه من أذى إلى الأبد، وإذا ما تعبَ من الأمر، فإنه سيبحث غالباً عن قوّة غيبيّة أخرى يُعَلّق عليها أسباب فشله وآلامه، ولعلّ أشهرها إبليس!

اعلم يا أيّدك الله بلطفه ومحبّته ورحمته، أنّ معرفة النّفس هي من أشرف العلوم وأرقاها، ولا تُعطَى مفاتيحُها إلّا لمن انتسب إلى المدرسة الإلهيّة؛ مدرسة العرفان والولاية والأسرار الكبرى وهي لا تحتاج منكَ أن تكون مدجّجاً بالشّهادات الأكاديميّة والألقاب العلميّة الطنّانة وما إليها، وإنّما تحتاج منكَ فقط إلى قلب طفلٍ وعقل وليّ عاشقٍ، وهما معاً من أصعب الشّهادات العرفانيّة التي يُمكن أن يحصل عليها سالكٌ في طريقِ الله، وهما المفتاح إلى عوالمك الدّاخليّة للتعرف عليكَ وكيف صنعك الخالقُ معجزة ليس في الكون لها مثيل، من هنا البداية ومن هنا سنمشي معاً خطوة خطوة لنعرف معاً: ما الشرُّ، وهل يوجد حقّاً، وهل وجوده مرتبط بتجلّي الأضداد، ممّا قد يدفعنا لتكون لنا وقفة مع الخير أيضاً من باب الحبّ والمحبّة!

## (٢)
## لا بدّ من الفراغ

لكي تعرف نفسكَ، لا بدّ لكَ أن تتجرّد من كلّ شيء كشجرةٍ ضربتها ريح صرصر في ليلة عاصفة ولم تترك منها أثراً، وإذا تجرّدتَ دخلتَ إلى مقام الفناء، واتّصلتَ بملكوت القُدس في حضرة الأسماء والصفات الإلهيّة وأصبحت ممّن يُؤثّرُ في الخلق جميعاً دون أن يلحقَ بكَ أثرٌ ولا تأثير من أيّ مخلوق كيفما كان ومهما علا شأنهُ، لأنّكَ تكونُ قد بنيتَ فراغك الكامل، والّذي هو أقصى ما يرنو العارف الحقّ إلى بلوغه حيث لا شيء بعد ولا قبل، ولا حول ولا فوق ولا تحت سوى الفراغ. وهو هذا الفراغ الذي به يمكنكَ أنت أيضا أيها القارئ أن تدخل إلى عالم الحقيقة الحقّة. حيث لا ماضي ولا مستقبل، ولا شيء يعنيكَ سوى الحاضر، ليس أيّ حاضر طبعاً، وإنّما حاضر الحضرة الأزليّة الأولى، حيث الحُكم فيها ليس على صورتك ولا هيكلكَ الطّيني لأنهما زائليْن، وإنما على قلبك وهيكلك الأثيريّ، وعلى نفخ الحقّ فيك عند بلوغ سدرة المنتهى. واعلم أنّك معي في حضرة المحو؛ لا شيء يدوم، ولا شيء يبقى، وأنا الحاضرة والغائبة في الوقت نفسه، وأنا الوجود والعدم. ولكي تدركَ قولي هذا، عليك أن تكون من أهل هذا الفراغ المطلق، والمحو والانمحاق الكامليْن، بحيث لا يبقى منكَ شيء، ولا تتعلّق بشيء، ولا يتعلّقُ بكَ شيء كيفما كان أصله أو نوعه. ولكي تستوعبَ فكرة الفراغ هذه دعني أروي لك حكايةَ قريةٍ مازال أثرُها عالقاً بين ثنايا القلب رغم كلّ هذه الأعوام والسنين، قرية بِكر لم يُخلق مثلها في البلاد، ولا رآها قبلي ولا قبلكم إنس ولا جان، فيها اكتفتِ الأمّهاتُ بولادة الذّكور فقط، دون أن

يعرف أحد لذلك سبباً، لكن الأمر الذي لا شكّ فيه، أنّ هؤلاء الذكور أصبحوا اليوم في سنّ الزواج وما من أنثى يقترن بها كلّ واحد فيهم تكون من بنات جيله أو تقربه في العمر والتفكير. وهكذا باتت هذه المشكلة شغلَ النّاس الشّاغل، وحار في حلّها الفقهاء والحكماء، لا سيما وأنّ القرية أصبحت في طورها إلى الانقراض بسبب ما لحق بقاعدتها الديمغرافية من شيخوخة، وعزم العديد من شبانها على مغادرتها بحثاً عن نساء للاقتران بهنّ يكنّ من أراضي أخرى بعيدة عن هذه القرية المغرقة في عزلتها الصوفية التي لا أوّل لها ولا آخر. وتوالت الأعوام الواحدة تلو الأخرى، وشاءت العناية الإلهيّة أن تبعث لرجال هذه القرية فتاة ليس لبهائها وجمالها وحسنها الفتّان مثيل أو نظير، ظهرت في حياتهم هكذا بدون سبب ولا مقدّمات، فحار الجميع في أمرها: من تكون، وكم عمرها، ومن أين أتت وما اسمها، وهل هي من الإنس أو الجان أو من جنس الملائكة البررة الكرام؟! لكن لا جواب يشفي عطش السائل الحزين اللهفان، لذا توقف الشباب عن السؤال واتفقوا جميعهم على التقدّم لطلب يدها من أجل الزواج بها، وبات كلّ واحد يحلم بها عروساً له تشاركه ما تبقّى من العمر. وهكذا ما إن بزغت شمس اليوم التالي، حتّى وجدتِ الفتاةُ شبابَ القرية كلّهم أمام بيتها، ففزعت من الأمر فزعا شديداً، وخرجت لهم تخاطبهم بلسان الحصافة والعقل والحكمة وقالت لهم:

–جميل جدّاً أن تكونوا قد اتفقتم كلّكم على زيارتي في هذا اليوم طالبين يدي للزواج، لكن كما تعلمون فهذا أمر يستحيل تحقيقه بهذه الطّريقة، فأنتم كُثر وأنا واحدة ولا يمكنني أن أكون لكم جميعاً وإنما لواحد منكم فقط لا غير، وعليه فإنني أقترح عليكم ما يلي: عودوا إلى بيوتكم ولا ترجعوا إليّ إلا بعد ثلاثة أيّام، تكونون قد حفظتم فيها عن ظهر قلب كلمة

الوحي المقدّس التي نزلت على كلّ الأنبياء والرّسل والأولياء المطهرّين، ومَنْ سيُظهر براعته في هذا الأمر فإنني سأكون زوجته.

عاد الشّبّان إلى بيوتهم وبعد مرور ثلاثة أيام كانوا في الموعد المحدّد أمام بيت العروس الفاتنة الجمال والفائقة الذّكاء، واستظهر كل واحد منهم كلمة الوحي المقدّسة ومن بين خمسمائة شابّ أسفر الفرز النّهائي عن خمسين شابّ أظهروا جميعهم تفوقهم في حفظ كلمة الوحي بالتمام والكمال. شعرت الفتاة بسعادة كبيرة وقالت لهم:

– يا لبراعتكم أيها الشباب المجدّون، ويا لسعادتي بهذه النتيجة التي توصلتم إليها، لكنّ المشكل مازال قائماً: أنتم خمسون، وأنا واحدة، لذا لا بدّ من إجراء مسابقة أخرى: عودوا إلى بيوتكم ومن يستطيع بعد مضي ثلاثة أيام أخرى أن يُظهر لي مدى قدرته على تطبيق كلمة الوحي فإنّني سأكون له زوجة طيلة الحياة.

عاد الشبّان إلى بيوتهم كما أوصتهم الفتاة وبعد مرور ثلاثة أيام كانوا في الموعد المحدّد أمام منزلها، وحينما خرجت إليهم تحدّثت إليهم ولم تسفر نتيجة المسابقة سوى عن عشرة شبّان كانوا قادرين على تطبيق كلمة الوحي حقّا وحقيقة، وحينذاك نطقت الفتاةُ من جديد وقالت:

–لقد حقّقنا نجاحاً مبهراً، وأصبحتم اليوم عشرة، لكنني لا يمكنني أن أكون سوى لواحد منكم، لذا فإنّ امتحاني الأخير سيكون كما يلي: عودوا إلى بيوتكم، ونلتق هنا من جديد بعد ثلاثة أيام يتقدّم لي فيها من يستطيع أن يظهر لي أنّه ليس فقط يحفظ كلمة الوحي أو يسهر على تطبيقها، وإنما يُظهر لي أيضا أنّه يفهم معانيها الكامنة جميعها.

مرّت الأيام الثلاثة الأخيرة من المسابقة، وعند الموعد خرجت الفتاة ولم تجد أمام بيتها أحداً، فاستغربت الأمر كثيراً، ومرّت ساعة ثم ساعتان ثم

ثلاثاً، وفي السّاعة العاشرة ليلاً طرق بابها شابّ واحد لا غير، أظهر لها حقاً قدرته على استيعاب معاني الوحي الإلهيّ الكامنة والباطنة، ففرحت به فرحا جمّاً وهتفت منتشية بهذه النتيجة المذهلة:

–أنا لكَ أيها الفتى الشجاع، هيّا بنا إذن لنغادر هذه القرية ونذهب معا إلى لقاء والديّ لتطلب يدي منهما بشكل رسميّ.

غادرا القرية وحينما وصل الشابّ إلى المدينة التي تقيم فيها عروسه وجد بيتها عبارة عن قصر ملكيّ باذخ، وفيه تسكن مع والديها المسنّيْن. وحينما تمّت مراسيم الاحتفال به زوجاً لابنتهما الوحيدة، خاطبت الأمُّ الفتى العريس وقالت له: ((هيّا اصعد إلى غرفة الطّابق العلويّ فزوجتك تنتظرك هناك)). صعد الفتى وفتحَ الغرفة لكنّه لم يجد أحداً، التفت وإذا به يرى بابا مفتوحا مطلّا على حديقة شاسعة، دخلها وبقي يمشي إلى أن انتهى إلى بحيرة كبيرة حام حولها ولم يجد لحبيبته من أثر سوى حذائها الفضّيّ: أخذه بين يديه وألقى به في الهواء، ثم غطس في البحيرة وعبرها كاملة وحينما وصل إلى الضفّة الأخرى التفت إلى القصر فلم يجد له أثرا هو الآخر، فضحكَ، وهو يشعر في داخله بسعادة كبيرة لأنّه فهم بأنّ العروس الحقّة التي على كلّ إنسان أن يصل إليها هي الفراغُ الكامل، الذي لا يتحقّق إلّا بالتخلّص من كلّ شيء: الأفكار المسبقة، الأحكام الجاهزة، تاريخ الخلق المزيّف، السياسات المعلّبة، غسيل الدّماغ على كلّ المستويات، وثقافات الاستكبار والطّغيان.

## (٣)
## انظر الآن إلى أبيك وأمّي

أن تتخلّص من كلّ شيء يعني أن تلتصق بالماء لتعود إلى بداية الحكاية كلّها، أيْ إلى بيضة الخلق، وإذا كُنتَ تعتقد أنّ كلّ شرور العالم بدأت بسقوط أبويْكَ آدم وحوّاء، فدعني من مبدأ البيضة الكونيّة الأولى أمط اللّثام عن الحقيقة وأعرّفكَ بوالديْكَ كما لم ترهُما أو تسمع عنهما من قبل حتّى يظهر لكَ ألّا شيء في الكون بأكمله اسمه شرٌّ بالمفهوم المتداول بين النّاس.

في البدء كانتِ البيضة، وكانتْ هي النّعيم والفردوس، وكان فيها قطبٌ ذَكريّ، وكينونة أنثويّة تعوم في الماء، وكان هناك صمتٌ كامل مُطلق، وفجأة شاء الوعيُ التخليقيّ الإلهيّ الأكبر أن تظهرَ الحركة، فظهرت بسرّ وأمْرِ من يقولُ للشّيء كُنْ فيكون، وبهذا الظّهور وُلدَ الزّمان ثمّ المكان، ولمّا كانتِ الحركةُ لولبيّة الاتّجاهات نتجت عنها دوّامتان كانتا في تذبذب مستمرّ ونبض يتسارع أكثر فأكثر كلّما اقترب نحو المركز ممّا عجّل بولادة نواة شمسيّة، لم يكُن لها أن تولد لولا تلاقح القطب الذّكرّي الّذي سقط من القسم العلويّ للبيضة ليلتحم بالقطب الأنثوي الرّابض في القسم السّفليّ (٣). وهو الإخصاب الّذي ذكره الله عزّ وجلّ في محكم كتابه حينما قال: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)) (٤)، والنّفسُ الواحدة هي ماء التّخليق في البيضة،

والزّوجيْن هما المبدأ الذّكريّ ثم الأنثويّ، والحمل الخفيف هو الإخصاب، أمّا "مرّت به"، فإنّما تعني هبوط القطب الذّكري نحو القطب الأنثوي بفعل الحركة الزمكانيّة المتلولبة، وهي هذه الحركة التي رمز لها أهل الأسرار بالأفعى، وسمّاها أهل الظّاهر بإبليس.

هكذا فقط يظهرُ لكَ إنّ القطبَ الأنثوي رُمِزَ له في النصّوص الدّينية بحوّاء، ولا يعني بتاتا الأمّ التي منها خرجت البشريّة جمعاء وإنّما المبدأ الأنثوي الّذي به حصل التخصيب في البيضة الكونية أثناء عملية خلق العوالم بأسرها، والشيء نفسه بالنسبة لآدم الّذي أصبحت تعرف الآن أنه ليس بأبيك الّذي خرجت من صلبه وإنّما القطب الذّكري الّذي خرج من هناءة الماء التّخليقيّ الأولى المرموز له بالفردوس ليهبط بحركة ماء التّخليق إلى الأنثى، كي يتمّ الظّهور الكلّي للكون.

وهو القول الّذي يجد تأكيداً لهُ في حديث أهل الشّام حينما قال أبو جعفر (عليه السلام) إنّ الله خلق الماء وجعل منه كلّ شيء حيّ، فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسبا يضاف إليه وخلق الريح من الماء ثم سلّط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقية ليس فيها صدع ولا نقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة، ثم طواها فوضعها فوق الماء، ثم خلق الله النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية ليس فيها صدع ولا نقب ولا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا سحاب، ثم طواها فوضعها فوق الأرض ثم نسب الخليقتين فرفع السماء قبل الأرض، وكانت السماء رتقا لا تنزل المطر وكانت الأرض رتقا لا تنبت الحب فلما

خلق الله تبارك وتعالى الخلق وبث فيها من كل دابة فتق السماء بالمطر والأرض بنبات الحبّ (٥).

الآن وقد عرفتَ أباك وأمّكَ، وعرفتَ أنّ ما يُرمزُ له بإبليس ليس هو الشرّ المُطلق وإنّما كناية عن خلق الحركة والرّيح والنّار وشقّ متن الماء الأنثويّ بهما، أعلم أنّك ستسألني وتقول هذا كلام لا يستقيم ومازال يلفّه بعض الغموض، لا سيما وأنّ الله نفسه تحدّث في أكثر من نصّ له عن شرّ الخلق، وأعلم أيضا أنّك ستستشهد بسورتَي النّاس والفلق، وهنا أيضا أقول لكَ إنّ شرّ الخلق وشرّ الغاسق إذا وقب والنّفاثات في العقد المذكوريْن في سورة الفلق، إنّما المقصود بهما الاحتجاب بالأهواء واستيلائها وتأثيرها على جسدك بشكل يجعلك بعيدا تماما عن نور الصّبح وسطوع شمسك الباطنيّة بعد أن تكون القوى النّفسية قد نفثت في عقد عزيمتك وعلوّ همّتك لإفشال كلّ خطوة لك نحو الإزهار والتنوّر الحقيقيَيْنِ، أمّا شرّ الوسواس الخنّاس في سورة النّاس، فالمقصود به تلوينُ الأنا الّذي يحول دون بلوغ مقام الفناء، حيث لا صدور ولا وسواس وموسوس له. وإذ تسألني عن شمسك الباطنية من تكون أقل لكَ، عرّج على أخيك القلب الكونيّ المرموز له بيوسف وستجد عنده الجواب، وكيف لا وهو الّذي رأى أمّه القمر وأباه الشّمس ساجديْن لهُ، أمّا عن إخوته الأحد عشر، فهم المقامات والدّرجات الرّوحية التي يسلكها القلب في شجرة الحياة قبل أن يصل إلى المقام الثاني عشر الّذي هو سدرة المنتهى (٦) حيثُ يتجلّى الأب المخلّص المرموز له بالشّمس، التي تتقدّم وتخلّص كلّ إنسان من أسْر العالم الدنيوي من خلال التجلّي فعلياً بداخل شخصيّته فتتغيّر كامل طبيعته إذ تشعّ بالنّور الإلهي، وتفعم بالحيوية. هذا الأب الشّمسُ هو الذّات المركزيّة والقدرة الباطنيّة على التطوّر والنموّ

الرّوحي، وإذا نظرتَ إليه من الجانب الفلسفيّ فستجده القدرة على الإدارك السليم والفهم الصّحيح، أمّا من النّاحيّة الصوفيّة العرفانيّة فهو التنوّر وقوة الحبّ الخلّاقة.

(٤)

## عانق أخويْكَ

مازلتَ في مرية ممّا أقول، أعلمُ هذا يا أيّدك الله بنوره وعلمه ومحبّته، وأعلمُ أيضاً إنّك ستسألني عن جريمة تعتقدها ثاني ما وقع في الوجود من شرّ بعد سقوط آدم وحوّاء ومازلتَ لليومِ لا تجدُ لها تفسيراً وتراها السّبب فيما يعيشه الإنسان المعاصر من حروب وأهوال وتقتيل وتذبيح في كلّ مكان من الأرض: قتلُ قابيل لأخيه هابيل. وهنا أيضاً دعني أقل لكَ، إنّه لا يوجد شيء في الوجود اسمه أوّل جريمة ارتكبها ابناء آدم وحوّاء، وهذا لأنه فعليّاً لا يوجد شيء اسمه حوّاء وآدم وقد سبق لي أن شرحتُ هذا في حديثي عن المبدأين الأنثوي والذّكريّ، ثانيا لا يوجد أيضاً شيء اسمه قابيل ولا هابيل، وإنما هما اسمان يرمزان إلى حقائق عرفانيّة جديدة، سأرفع عنها السّتار الواحدة تلو الأخرى لتظهر لك البشارة كما هي: قابيل هو الأنا النّفسية، وهابيل هو الذّات العليا القلبيّة، أمّا الأختان اللّتان اقتتلا من أجلهما فهُما الوهم التخيّلي المرتبط بالنّفس، والعقل والإدراك الرّوحي المرتبط بالقلب، وقد قتلتِ الأنا القلب ومنعته من الاقتران بالقوى العقلية الإدراكيّة فحدث الشرّ الحقيقيّ، إظلام الرّوح وبُعدها عن بلوغ مبتغاها الّذي هو إشراقة شمس الحقّ في كامل الكيان الإنسانيّ. والآن وقد أدركت معنى أخويْك، فعانق هابيل، وصالح قابيل ودعه يذعن لك ويأتمر بأمرك لتأخذ بيده وتصل به إلى شمس الحقيقة وتعرّفه حلاوة انفلاق القمر وعبور البرزخيْن (٧). ولا تنس أن تاريخ الأجداد حافل بقصص كهذه تستخدم الرّموز ذاتها وإن بأسماء مختلفة كقصّة

أوزيريس وإيزيس التي يخطفها إبليس أو قابيل أو تايفون أو سمّه كما تشاء، بعد أن يكون قد قتل أوزيريس أو هابيل (القطب الذّكريّ)، فيظهر حورس الابن المخلّص، آدم، أو محمّد، أو عيسى، أو المهدي المنتظر سمّه كما تشاء، وذلك ليُخلّص القطب الأنثويّ ويُشَخّص بذلك الانبعاث الإلهيّ والرّوح الكامنة التي ذبحتها طبيعة الإنسان الطّينيّة.

الآن وقد اكتملت الصّورة دعني أقل لك إنّ الشرّ الأكبر الّذي لحق البشريّة، إنّما ظهر بسبب سوء تفسير الكتب السّماوية، وحَجْبِ الأخرى العرفانيّة التي كتبها أهل الحقّ وأصحاب الأسرار الإلهيّة الكبرى، انظر حولك، وسوف ترى ما الّذي لحق بالقطب الأنثوي في الوجود، إنّ الاعتداء عليه بهذه الطّريقة البشعة من طرف العديد من رجال الكهنوت والفقهاء بكتم وتحريف الحقيقة التأويليّة، عجّل باستفحال قوةّ المبدأ الذكريّ، وطغيانه وظهور شخصيّات تاريخية أضرمت العالم بنيران الحروب والإرهاب والحرق والتدمير، ممّا جعل القوة الأنثوية الخلاقة تتراجع بيديْن مكبّلتيْن، وتشوّهت صورة القطب الذكريّ، وضاع المبدأ الأنثوي دون أن يتذكّر أحد ما كان يقوله أهل الله في الماضي البعيد القريب صارخين: (احموا إناثكم من الآخرين واحجبوهنّ عن الغرباء)، فاعتقد الجهلاء بواجب تكفين المرأة من أعلى رأسها إلى أخمص قدمها، وحجبوا زوجاتهنّ وبناتهنّ وأخواتهنّ، ولم ينتبهوا إلى أنّ الحكماء الأوائل كانوا يقصدون الأنثى العقليّة التي مازالت لليوم مكشوفة للجميع ومعرّضة في كلّ حين للاغتصاب بدون حسيب أو رقيب ممّا عجّل باندلاع الحروب في كلّ مكان وظهور السّبي والقتل والحرق والإرهاب والفوضى التي لا أوّل لها ولا آخر.

(٥)

## شرور الحروب التكفيريّة إلى أين؟!

الإيمانُ بذرةُ اللهِ في قلوب البشر، والدِّينُ بدعةُ البشر في أرض الدُّنيا والحياة الفانية، لذا فإن الإيمانَ لله، والدّينَ للبشر، وما هو لله واحد لا ينقسمُ ولا يتجزّأ، وما هو للبشَر يتعدّدُ ويأخذُ ألف شكل وصورة، ولهذا كثُرَتِ الأديانُ وبقي اللهُ واحداً أبديّاً أزليّاً قيّوميّاً. لكن يبقى السُّؤالُ الحقيقيُّ الّذي يجِبُ طرحُه الآن هو: لماذا سمحَ اللهُ للإنسانِ بأن يُعَدِّد في دياناتِه ومللِه ونحلِه؟ أوَليْس منَ "الأفضل" أن يكونَ النّاسُ على ملّة واحدة؟!

من القرآن الكريم أقدِّمُ للقارئ العزيز جوابيَ- السّؤال: أوَليْسَ اللهُ هو من قال في سورة الإسراء (آية ٢٣): ((وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ))؟! إذن فمهمَا عبدَ إنسانٌ وكيفما كان ما يعبدُه فإنّه لا يعبدُ حقيقةً إلّا الله، لأنّ عبادتَهُ أمر مقضيٌّ منه منذ الأزل، ولا أحد له القدرة على تغيير هذه الحقيقة المسلّمَة. وما دامَ فعلُ العبادة مظهراً وتجلّياً من تجلّيات الجمال الإلهيّ، فإنَّ كلّ عابد هو في الحقيقة مُحِبٌّ عاشقٌ لصورة الله الجميل في كلِّ شيء، وهذا هو مقامُ العارفين لأنّهم لا يكتفونَ بحبِّ الله وعشقهِ في صورة واحدة وإنّما في الوجود بأسرِهِ، وهُم بهذا يختلفون عمّن أحبّ ويُحبُّ اللهَ بشكل محدود وفي دين معيّن جاعلاً منَ الأماكن جهَةً يُقدّسُها ويحجُّ إليها، فهذا يهوديّ يوجّهُ بصرَه إلى القدس وحائط المبكى كلّما حلّت أعياد البيساح والشَّافوت والسكوت، وذاك مسيحيٌّ يقصِدُ كنيسة القيامة ونهر الأردن والفاتيكان، وآخرٌ مُسلِم يوجّهُ قلبَهُ إلى مكّة حيث الكعبة، ورابعٌ بوذيٌّ يحجُّ

إلى لومبيني مسقط رأسِ المعلّم بوذا في النّيبال، وكذلك إلى بود جايا حيث نزلَ عليه الوحي أول مرّة. أو إلى سارناث في الهند، حيثُ أعلنَ عن رسالته وبدأ في نشر تعاليمه، وهكذا دواليك من الأماكن الّتي تختلفُ باختلاف ديانات من يقصدُها. وهؤلاء هُم في مراتب العبوديّة أقلُّ من أولئك الّذين يعبدون الله في كلّ تجلّيات الوجود، لأنّهم قيّدُوا إيمانَهم بقِبْلَة أو جهةٍ واحدة يستفرغون فيها كلّ جهدهم وطاقاتهم. واختلافُ قِبْلَة العبادة تشهدُ عليه آيةٌ قرآنيّة أخرى يقولُ فيها اللهُ عزّ وجلّ: ((وما خلقتُ الجنّ والإنسَ إلّا ليعبدونِ)) (٨)، وهذا يعني أنّ كلّاً من الجنّ والإنس مشغول بعبادة خالقه الّتي اختلفت باختلاف مقتضيات أسمائه، والّتي يعنيني منها هنا اسميْه (الهادي) الوارد في الآية التّالية: (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً) (٩) ثمّ (المُضِلّ) المذكور في هذه الآية: (مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) (١٠)، وكلاهما عابدٌ؛ الضالُّ والمُهْتدي، إذ الملَلُ ما تفرّقتْ واختلفتْ إلّا لأنّ كلّ طائفة تعتقدُ أنّ عبادتَها لله على الشّكل الذي اختارتهُ أمرٌ صائب، وإلّا فما معنى أن يقول ربّ العزّة: ((تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) (١١)، وهو سبحانه وتعالى المتصرّفُ في عباده من حيث تنوّع عباداتهم واختلافها، وهوَ التّنوّع الّذي تحقّقَ على الأرض من بابَيِ الولايةِ والنّبوّة. وقلبكَ المسمّى بآدم ونوح وإدريس وعليّ ومحمّد وما شئت من الأنبياء والأولياء كان أوّل من شرعهُما على مصراعيْهما، لأنّه كان ممّن جمع بين الولاية والنُّبوّة؛ فحينما كانَ في الفردوس وهناءة البيضة الكونيّة، كان وليّاً لله وكان يؤمِنُ به من حيث مقامهُ في دار الكرامة والمشاهدة والكشف، وحينما نزلَ إلى الأرض الأنثوية ومائها الأصفر وتناسلتْ وكثرت

ذريّتُه، أصبح نبيّاً فأُرْسِلَ إليهم ليهديهم إلى طريق الله والإيمانِ به، ومنذ ذلك الحين والبشريّةُ منقسمة بين معتقِدٍ في الله وبين مؤمن بالطّبيعة ونجومها ومائها وأحجارها وكواكبها وبين ناكرٍ للخالقِ تماما، وإن كان حتّى النَّاكرُ عابداً لله مُسَبّحاً له وإن لم يفقهِ النّاسُ تسبيحَهُ، ألمْ تسمعِ اللهَ أيُّها القارئُ العزيز وهو يقول في فرقانه المبين: ((مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)) (١٢)؟!، نعم، إنّهم فرحون بأعمالهم في الدّنيا وفي الآخرة أيضاً، وإن كان مآلهم إلى الجحيم، أيْ أنّهم على الرّغم مما ذاقوه من عذابٍ في النّار، فإنّهم إذا حدثَ وأعيدوا إلى الحياة الدُّنيا، لعادوا إلى ماكانوا عليه من إنكار لله وعدم إيمانٍ ظاهريّ به، لأنّهم استلذّوا عذابَ الجحيم من باب رحمة اللهِ بعباده، وإلّا لما كان قال الخالقُ: ((أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ))(١٣)، فهو وحده يجيبُ المضطرَّ حتّى وإن كان في الجحيم (١٤) ويكشفُ عنه السّوءَ والعذاب! فسبحانه وحده جعلنا نتكلّمُ أكثر من لغة، وندين بأكثر من دين، لتتحقّق مشيئته وكلمته، ويتجلّى ملكوته!

وأمّا عمّن يكفّرُ الآخرين من أهل الديانات الأخرى لأنّهم يعبدون إلها لا علاقة له بإلههم الّذي تنص عليه كتبهم كما يحدث في كثير من الأحيان بين المسلمين والمسيحيين، فهذا ما لا يقبلُه عقلٌ ولا منطق! ومن يؤمن بهذه الفكرة معتمداً على قضيّة التّثليث لدى المسيحيين مثلاً كحجّة ضدّهم، فإنّي أظنُّ أنّه قد وجب رفعُ حجاب الغموض والخلط والتّشكيك. والبداية ستكون من قوله تعالى حينما سأل السَّيّدَ المسيح عيسى ابن مريم:((وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ

مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) (١٥)، وهي الآية التي سأعقّبُ عليها كما يلي: إذا كان أوّل القرآن بسم الله الرّحمن الرّحيم، فإنّ أوّل الإنجيل باسم الأب والابن والرّوح القدس، وما وقعَ الخطأُ إلّا في طريقة التّأويلِ لكلتا البسملتيْن فأخذَ قوم عيسى في بداية العهد المسيحي الكلامَ على ظاهره فظنَّ البعضُ منهم أنَّ الأب والابن والروح القدس شيئاً واحداً، وقالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، دون أن يعلموا آنذاك أنّ المُراد بِاسم الأب هو الله، وباسم الابن هو ماهية الحقائق، وباسم الرّوح القدس هو الوجود المطلق لأنّهُ نتيجة عن ماهية الكينونة والجوهر مصداقا لقوله عزّ وعلا: (يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (١٦)، وعليه يصبحُ ردّ سيدنا المسيح على سؤال الله: (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ) دليلا على براءته مما توهّمَهُ قومه لأنّهُ زاد في بيان وإيضاح ما التبس على الناس. فليس عيسى هو الله، ولا أمُّه كذلك معتذراً في الوقت ذاته لقومه طالبا من الربّ ألّا يلومَهم على ما فعلوهُ من خلال ما علمُوه بالإخبار الإلهي في أنفسهم، لذلك قال عيسى: (وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، وهو يعلمُ جيّداً أنّ قومَه لم يخرجوا عن الحقّ أبداً، وإلّا ماكان طلبَ لهُمُ المغفرةَ، واكتفى بفعل ما فعلهُ إبراهيم (ع) مع أهله: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (١٧). وهذا ما يفسّر كيف أنّ جواب الله كان بأحسن ما يكونُ الجواب الإلهيّ دائماً حينما قال: (هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ

الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (١٨)، أيْ أنّهم لمّا كانوا صادقينَ في تأويلهم لكلام الله على ما ظهرَ لهُم منهُ، فإنّ صدقَهُم هذا نفعهم عندهُ حتّى آلوا إلى الرّحمة الإلهيّة فكانَ الإنجيلُ عبارة عن تجلّيات الذّات في الأسماء، والّتي يُعدُّ التَّجلّي في الواحديّة إحداها، وأعني بهَا تلكَ الّتي ظهر بها على قوم عيسى في عيسى، ومريم وكذا في الرُّوح القدس، فشهِدوا الحقَّ في كلِّ مظهر من هذه المظاهر مصداقاً لقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (١٩).

لأجل كلّ هذه الاختلافات فإنّ الأديان بشكل عامّ تبقى مؤسّسات ناموسيّة، قائمة على منطق القانون، والثَّواب والعقاب، غير قادرة على درء الشرّ عن الإنسان ولا على تحقيق السّلام في الأرض وفي قلوب النَّاس. إنّ كلّ شيء يقوم على القانون ينبعُ من منطق الخوف، وكلُّ شيء يقوم على الخوف لا يمكنه أن يعرف الطّريق إلى الحبّ أبداً. معظمُ المعتقدين في الأديان والمؤمنين بها، تتعلّقُ قلوبهم بالجنّة وتخشى النّار: لا يوجد أحدٌ يحبّ الله من كلّ قلبه ومن كلّ نفسه، لأنّه يفتقرُ إلى منطق الحياة الّذي تكبته الأديان في قلوب النّاس. الدّين كالقانون، يفرض الخوف، والحبُّ تعبير واضح وصريح عن عدم الخوف. كثيراً ما نسمعُ في حياتنا اليوميّة أنَّ القانون هو سيّد المجتمع، لكنّنا لا نتساءل أبداً عن المعنى الحقيقي لهذه العبارة، ولو تأمّلناها للحظة واحدة سنجدُ أنّها تعني أنّ كلّ المجتمعات تعيشُ في خوف مستمرّ من العقاب، لكن لك أن تتخيّل معي كيف لو كان الحبّ

هو سيّد المجتمع، لا شكّ أنّ حياة النّاس ستكون آمنة وسالمة من كلّ المنغّصات والآلام.

مشكلة النّاس اليوم أنّهم يكثرون الحديث عن الحبّ دون أن يعرفوا ماهيته وحقيقته أبداً: الطّفل في البيت يجد أمّه صباح مساء توصيه بأنْ يحبَّ أباه وأقاربه، كذلك في المدرسة يحدثُ الشَّيء نفسه، لكن لا أحد يقول لهؤلاء الأطفال إنّ الحبّ لا يحتاجُ إلى تعليم، فهو إمّا ينبعُ من داخلك وإمّا لا. من يعلّمُكَ الحبّ يجني عليك دون أن يدري، لكن من يتركُ لك حرّيّة الإحساس بالحبّ والاطّلاع على نبعه الفيّاض في داخلك، يكون حقّاً قد دلّك على الطَّريق السَّليم. الحبّ لا يحتاج إلى وصايا، أو تعاليم أو نواميس وقوانين، وإنّما يحتاج إلى حلول السّلام في القلب، وهو السّلام الّذي لم تستطِع الأديان أن تحقّقه لأنّها حينما شغلتِ النّاسَ بالجنّة أنتجتْ لنا جماعات هائلة من الطّامعين، فظهر من يعلنُ الحروبَ ويشعلُها من أجل هذه الجنّة، وحينما شغلهتم بالنّار أنتجتْ لنا جموعاً غفيرة من الخائفين والمرعوبين! أرأيتَ عيسى يا عزيزي القارئ؟ هل وصلكَ خطابُه؟ هل تعرف من هو حقيقة؟ دعني أعرّفكَ به إذن: إنّه الرّجل الوحيد الّذي جاء ليقلبَ نواميس الأديان رأساً على عقب. لأنّه لم يأتِ بقانون أو شريعة أو ناموس، وإنّما جاء فقط بالمحبّة، لأجل هذا لم يتقبّله تُجّارُ الدّين حينما ظهر، وحاكموه بمنطق القانون واعتبروه مجرماً وعاقبوه على درس المحبّة، ولعلّ طريقته في تعامله مع تلك المرأة الزَّانية أصدق مثال ودليل على ما أقول: إنّه لا يُدين أحداً، لأنّ الدَّيّان الحقيقي هو الله ولا أحد غيره. ألّا تُدِينَ أحداً يعني أنّكَ أصبحتَ مُعلِّماً، وليس رجلَ دين متنوّر فقط، لأنّ الفرقَ بين الاثنين شاسع جدّاً. من الممكنِ أن تُصبح متنوّراً، لكنّه من الصّعب جدّاً أن

تكون مُعَلِّماً، لأنّ مسار الحالتيْن أو الصّفتيْن مختلف تماماً. المتنوّرُ وإن كان رجل دين مقيّدٌ بالأطماع، والمُعلِّمُ متحرّرٌ بالحبّ والعطاء والكرم. وسأعطيك عزيزي القارئ مثالاً على هذا الفرق بين المتنوّر والمُعلّم، فالرّاهبُ الشّابّ مثلاً قد يكون مجرّد متنوّر يحفظ الطّقوس، ويحافظُ على العبادات، ويحرِمُ جسدَه وعقلَه من المغريات، لكنّه على الرّغم من ذلك لم يحدث بداخله التَّنوّرُ الحقيقي الّذي يرفعُه إلى صفة المعلّم، لأنّ الطّاقة الّتي بداخله قد تحوّلتْ إلى كبتٍ يستحيل معهُ أيّ تحوّل أو تفتّح صادق وفعّال.

الرّاهبُ أو السّالكُ (بغض النّظر عن عقيدته أو ديانته) الّذي لا يتزوّج مثلاً، أو لا يعرف النّساء أبداً، قوّتُه أو نارُه الجنسيّة تتحوّل إلى كبتٍ يعوقه عن العروج إلى سماوات الملكوت، لأنّ الأنثى ضرورية جدّاً لهذا النّوع من العروج، إنّها المرآة الّتي تُحقّقُ التَّعرُّفَ على النّفس، والشَّيء نفسه ينطبق على المرأة "الرّاهبة" أو العارفة أو السّالكة في الطّريق. واسألْ عزيزي القارئ أهلَ الفيزياء عن هذا الأمر يخبرونَك بأنّ كلّ طاقة لا تنتهي أبداً وإنّما تتحوّلُ، والطّاقة الجنسيّة الّتي أنا بصدد الحديث عنها الآن، إذا لم تُوَجَّه بالشّكل السّليم فإنّها تتحوّلُ إلى كبتٍ، وكلّ كبْتٍ هو مدمّر للطبيعة البشريّة، وثمّة من رجال الدّين من يستخدمُ هذا الكبتَ في الدّخول إلى باب الطّمع وتحقيق الغايات القصوى من الحياة الكهنوتيّة أو العرفانيّة، وهذا ما يُفسِّر ما سجّله تاريخ الدّيانات من تطاحنات دمويّة قاتلة في جيراركيات الكنائس والمعابد والمؤسّسات الدِّينية الأخرى، وما قام به بعد ذلك بعض المتصوّفة من تصفيات لبعضهم بعضاً بدافع من الغيرة والحقد والحسد.

أن تتحوّل من درجة المتنوّر إلى درجة المعلّم يعني أن تحترق بنار الحبّ، ولا يكفي أن تكون من أهل العمل فحسب، أو من أهل العِلم فقط. لا

بدّ أن تجمع في طريقك بين جهادك للنّفس والجسد، وبين عملكَ على العقل ونارِكَ المقدّسة.

ورجال التّنوّر في هذا لا يسلكون طريقاً واحداً، وإنّما هُم مختلفون باختلاف الطّرق الّتي تؤدّي إلى الله، لكن الّذي يحدث أحياناً –وهذا ليس بالأمر الجيّدِ طبعاً– أنّ البعض منهم يكتفي بطريق واحدٍ، فيصبح إمّا من رجال العمَلِ وحده، وإمّا من رجال العِلم، أو من أهل القلبِ فقط، والحقيقة أنّ المتنوّر الحقّ ليصلَ إلى درجة المُعَلّم، عليهِ أن يجمع بين كلّ هذه الطّرق والمسالك. ومن لديه خبرة ودراية بماهية الجسد البشري، سيعرف جيّداً قيمة ما أقول، لأنّ هذا الجسد هو على درجتَين: فيه العقلُ؛ وهو المرشدُ الأعلى، وفيه النّار المقدّسة، وهي طاقة الحياة، والعقل هو المتحكّمُ في النّفس يُذَكِّرُها بأصلها النُّورانيّ، ويدعو مركبة الجسد إلى الصُّعود إلى أعلى، ويُذَكّر النّفسَ بأنّ كلّ عذاباتها وأمراضها هي مجرّد خيال ووهمٍ يُمكنُ حرقهُ جيّداً بالنّار المقدّسة والّتي كثيراً ما تحدّث عنها الله في العديد من نصوصه أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هذه الآية القرآنيّة الّتي يقول فيها: ((وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ، إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)) (٢٠). هذه النّارُ بيتُها الأوّل هو أسفل الظّهر وإذا اهتدى إليها مُوسى– العقلُ دعَاهَا إليه وأمسكَ شعلتَها بيديْه وارتفع بها إلى الأعلى ليحرق بها كلّ الشّوائب، وأنار بها بقيّة "أهله" الّذين هُم القلبُ والفؤاد والرّوح والحواسّ، ويجبُ أنْ أذَكِّرَ وأنا في هذا المقام بأنّ هذه النّار تَضْعُفُ إذا استهلكَها الإنسانُ كاملةً بإخراجِها من باب الشّهوة الجنسيّة المبالغِ فيها، أو عن طريق الجَشع والنّهم والأكل الكثير، لذا فإنّه

من المستحسن أن يعمل كلّ إنسان يرغبُ في سلوك طريق النّور أن يحافظ على مَنْيِهِ ومائِه لأنّهُ طاقة مقدّسة وذلك بأن يقنّنَ الممارسة الجنسيّة، وألّا يحرقَ عقلَه وجسدَه بالتُّخمة الّتي لا تجرّ إلّا الوبال والمرض، وأنْ يقلّلَ من الكلام، لأن اللّسان مُهدر كبير لطاقة الإنسان، وأن يغضّ ما استطاع بصره عن النّظر إلى المغريات لأنّها تسرقُ الطّاقةَ عبر العين.

النّار المقدّسة شيءٌ مهمّ في جسد الإنسان، لأنّ بها يتمُّ العمل على العقل والقلب، وهو ما اصطُلِحَ عليه لاحقاً بعمل الرّوح القُدُس. العقلُ والقلبُ هما كآلة العود إذا لمْ يعرفِ الإنسانُ كيف يضبطُ أوتارها جيّداً بحيثُ لا تكون مشدودةً جدّاً، ولا مرنةً أو مُرتخيةً بشكل مبالغ فيه، فإنّه لن يُقَدِّمَ معزوفتَه الخاصّة الّتي تميّزهُ عن بقيّة النّاس. ومن الأخطاء الّتي مازال يرتكبُها الإنسان لليوم، اعتقادهُ أنّ طاقتَه تنبع من قلبه فقط أو من عقله أو منهما معاً، في حين أنّها تنبع من سُرّتهِ لا غيْر. لا أحد ينظرُ إلى الوردة ولا إلى الشّجرة ويستوعبُ حقيقةً أنّ جذورَها هي سببُ حياتها. الكلّ ينظرُ إلى رأس الوردة يقطفه ويشمّه، أو إلى رأس الشّجرة يجني ثمارَه وأزهارَهُ. لِذا أقولُ لكَ عزيزي القارئ إنّ الإنسانَ هو بمثابة الشّجرة الواقفة وجذورهُ في سرّته، وهي المكان الوحيد الّذي منه يستمدُّ الطّاقة وينفتحُ بهِ على الوجود.

كلّ مجتمعٍ يعتمدُ على العقلِ فقط، يكونُ مجتمعاً فاسداً وممتلئاً بالمجانين والمهووسين، والشَّيء نفسه بالنّسبة للمجتمعات الّتي تهتمُّ فقط بروحانيّاتِ الجَسد. العقلُ وحدَه لا ينفعُ، لأنّهُ آلة حسّاسة وهشّةٌ جدّاً، وليس لها كلّ القدرة والطّاقة اللّازمة من أجل تحمُّل ضغوطات الحياة بما فيها القلقُ والغضب والألم، والإجهاد النّفسيّ وما إلى ذلك، لأنّهُ في الأخير سيعلنُ فشَله ويتوقّفُ عن العمل الصّحيح، وهذا هو السّبب وراء كثرةِ

المختلين عقليّاً والمرضى النّفسيين في المجتمعات المعاصرة. على كلّ إنسان أن تصبح غايتُه تحقيقَ أعلى درجات الصّمت في حياته اليوميّة، وأعني هنا الصّمتَ المصاحَبِ بالسّماع والاستماع والاستمتاع. قد يبدو الأمر صعباً، لكنّ العقلَ لا يمكنه أن يعمل حقيقةً وبشكل خلّاق إلّا إذا تحقّق له الصّمتُ والسّماع الكاملَيْن. كلّ إنسان مطالبٌ بهذا الصَّمت من أجل التّواصل مع مركز الطّاقة الأهمّ في جسده وهو السّرّة. وهذا يعني العودة بالعقل إلى حياةِ المشيمة حيث الصّمت الّذي لا يعادله صمت، وحيث الهناءة والوداعة والسّلام. كلّ إنسان بدأ حياتَهُ هكذا، لكن الأخطاء الّتي ارتكبتْها الحضارات والثّقافات والأديان في هذا المجال لا تُغتفرُ أبداً.

في المجتمعات البدائية كانتِ الأمُّ بمجرّد أن يُقطعَ الحبلُ السّرّي الّذي يربطُها بطفلها، تُسارعُ مباشرة إلى تعويضه بثدي الأمومة، وكانت – وهي الّتي لم تكنْ لا بالمثقّفة ولا الفيلسوفة ولا الطّبيبة – تعرفُ جيّداً كيف تنتقلُ من مركز السُّرّة إلى القلبِ، وتربطُ قلبَها بقلبِ رضيعِها عبر الثَّدي، الشَّيء الَّذي يعني أنّ الطّفلَ كانَ ينمو بالمحبّة والسّلام. وكانتِ الأمُّ لا تحبُّ أبداً حرمانَ ابنها من حليبها إلَّا بعد أن يبدأ هو وعن طيب خاطر في الابتعاد عن الثّدي بعد أن يصبح عمرُه ثلاث سنوات وفي حالات أخرى حتّى أربع سنوات.

اليوم وقد تغيّرتْ وضعيةُ المرأة وانتقلتْ من حالة البداءة إلى حالة العقل والثَّقافة والتَّمدّن والتَّحضّر، أصبحت ما إن يُقطَعُ الحبل السّرّي حتّى تُلقمَ طفلَهَا زجاجة الحليب الاصطناعيّ فتُضَاعِفَ من ألمه وحرمانه بفصل سُرّتِهِ عن سُرّتها، ثمَّ قلبِه عن قلبها. وهذا ما يفسّرُ كيفَ أنّ الثَّقافةَ السّائدة في الغرب هي ثقافة العقل، وذلك لتعويضِ ما تمّ فقدانُه في كلّ القرون

الماضية من علاقةٍ بين السّرّة والقلب. بل هذا ما يُفسّرُ أيضاً كيف أنّ العديد من رجال الثّقافة الكبار والمشهورين في العالم الغربيّ عانوا في حياتهم من الجنون أو من الأمراض والآلام العقليّة المختلفة. والمرأةُ قد ساهمتْ بشكل كبير في هذا الخراب الرّوحيّ. لذا تجدُ أنّ الإنسان في مساره الحضاري قد عوّضَ صورتَها حتَّى في الدّائرة اللّاهوتيّة والإيمانيّة بصورة الإلهِ –الأب، ولم يعترفْ قطّ بصورة المرأة –الإلهة، وفي أقصى الحالات أعطاها درجة "أمّ الإله"، وليست بالإلهة أبداً. أمّا على مستوى الحياة اليوميّة، فانظرْ كيف أصبح الأبناءُ يعاملون أمّهاتِهم في كلّ ركن من العالم: لا يوجد هناك احترام، ولا محبّة، ولا مودّة. لأنّ جُرحَ الأبناء في أمّهاتهم عميق جدّاً ولا يستطيعون أن يغفروا لهنّ ما ارتكبنَه في حقّهم من جريمة حينما منعنَ عنهم الثّدي واستبدلنهُ بقنّينة زجاجيّة أو بلاستيكيّة يبحثن فيها بشكل أو بآخر عن طريق يوصلهم جميعاً؛ أمّهات وأبناء إلى ماضي السّرّة والقلب. لأجل هذا أقول إنّ ثديَ المرأة شيء مقدّس والله لم يخلقه عبثاً، وإنّما جعله بوابةً إلى عالم الرّوح وملكوت السَّلام: انظر إلى لوحات الفنّانين الكبار وستلمس بنفسكَ مدى الحرمان الَّذي تعيشه الإنسانيّة. الكثير من الفنّانين يرسمون أثداء النِّساء بشكل رائع وبديعٍ، ويعبّرون فيه جميعُهم عن مدى حاجتهم الشَّديدة إلى الحبّ والحنان والأمن والأمان.

لا يمكنُ للنّساء أن يطلبن المستحيلَ وهنّ يعانين من عنف الرَّجل وشرّه في كلّ مكان؛ عنفه في الشَّارع، عنفه في العمل ثمَّ عنفه في البيت. إنّها كارثة حقيقيّة ولن ينقذكم منها أيّها النّاس سوى المرأةِ نفسها، وهي الآن مطالبة أكثر من غيرها بالعودة إلى سُرّتها وثديها، حتَّى تقود أبناء العالم إلى مركز الطّاقة الحقّة، وحتّى يجدَ العقلُ طريقه إلى الطَّمأنينة والسَّلام.

شرّ النّاس وحروبهم المضطرمة في كلّ مكان ناتج عن هذا الشّرخ الأموميّ الكبير، وعن كراهيّتهم لأنفسهم لدرجة أنهم يرتكبون الشّرّ ويتلذّذون به وبنتائجه أكثر من فعل الخير. وحينما أقول إنّ النّاس يكرهون أنفسهم، فإنّي أقصد بالكراهيّة تلك الّتي تستمدُّ مشروعيّتها من الوصايا والأحكام الدّينيّة. معظمُ نصوص اللّاهوت وفي كلّ الدِّيانات تُحَذِّرُ الإنسانَ من نفسه، وتقولُ له إنّها الأفعى الّتي تسعى بين جنبيْه والّتي عليه أن يحاربَهَا بدون هوادة ليضمن لروحه النّجاة، ولأنّ الكثيرَ من النّاس يملكونَ خيالاً خِصباً في تأويل الوصايا والتّعاليم، فإنّكَ تجدُهُم يطبّقونها بحذافيرها مكتفين فقط بالمعنى الظّاهريّ الّذي غالباً ما يقول لهم: "أبغض نفسَكَ وأحبَّ الله، هذا هو الخلاص". ومن هذه المُلاحظة يحقُّ لي أن أتساءل وإيّاكَ أيُّها القارئ العزيز وأقول: ما الّذي استفدناه من كراهية الإنسان وبغضِه لنفسِه؟ الواقع العالميّ المَعِيش مِن حولنا يقول: آلافٌ مؤلّفة من الشّباب فجّروا أنفسَهم في الكنائس والمساجد، في المعابد والأسواق، وفي التَّجمّعات التّجارية والشَّوراع. أليس كذلك؟ كلّ هؤلاء فعلوا هذا، لأنّهم "يحبّون الله"، ويكرهون أنفسَهم.

المسلم الّذي يقتُل المسيحيّ، يقوم بذلك لأنهُ يُحِبُّ الله؛

المسيحيّ الّذي يقتل المسلمَ، يقوم بذلك لأنّه يُحبُّ الله؛

اليهوديُّ الّذي يقتلهُما معاً، يفعل ذلك، لأنّه هو أيضاً يحبُّ الله؛

والبوذي الّذي يقتلُ المسلم، يقوم بذلك لأنّه يُحبّ الله ربّما أكثر منهم جميعاً، واللّائحة تطول طبعاً.

طيّب، إذا كانت محبّةُ الله تتسبّبُ في كلّ هذا الألم والعذاب، فمن يكون هذا اللهُ الّذي من أجله يتقاتَلُ كلّ هؤلاء؟! لا شكَّ أنّه سفّاك يحبّ الدّماء ونحن لا ندري عنه شيئاً. لأنّ اللهَ الّذي أعرفه أنا وتعرفُه أنتَ عزيزي

القارئ، ليس له أيّة علاقة بهذا الإله الَّذي بِاسْمِه تُرْتَكبُ كلّ هذه المذابح! ما أريدُ قوله هو أنّ من يكرهُ نفسَه، لا يمكنُه أن يُحِبَّ اللهَ أبداً، لذا فإنّي أعتقد أنّهُ من الأفضل لو يتركِ النّاسُ جميعاً اللهَ جانباً، وليبدأوا على الأقلّ بحُبِّ أنفسِهم، لأنّ طريق الخلاص الحقّ يكمُنُ هُنا، في هذه النّفس الَّتي يوصي الجميع ببغضِها ومقتها.

كونوا محبّين لذواتِكُم، ما من مُشكل في ذلك، أحبّوا أنفسكم قدر ما استطعتم، اكتشفوها، تعرّفوا عليها، ولا تنصتوا للباقي، لأنّ الولادة الجديدة تقتضي المحبّة قبل كلّ شيء، وهذه المحبّة إذا لمْ تبدأ من الدّاخل فإنّكم لن تجدوا اللهَ أبداً.

الحبّ هو الحلّ إذن، لأنّه يفتحُ عينيْكَ على الحياة، وكونكَ تعيش اليوم فهذا لا يعني أنّكَ تحيا، فرق كبير يا صاحبي بين الحياة والعيْش. انظر حولك ولو لبضع لحظات، انظر إلى حياتكَ كيف هي؟ وستجد أنّها جحيم مطلقة، لأنّك لم تعرف اللهَ الحقّ بعد، على الرّغم من إيمانك وصلواتك وعباداتك، إنّك مازلتَ على الشّاطئ، ضائع كقوقعة منسيةٍ من كلّ شيء.

لا تصدِّقْ من يقول لكَ كُنْ كعيسى، أو كُنْ كمحمّد وموسى، أو كمريم وفاطمة، أو كتيريزا ورابعة، لأنّ في هذا القول إهانةٌ كبيرة لكَ، وتقزيمٌ وتحقير لنفسكَ. أنا أقول لكَ في المقابل: كُنْ أنتَ ولا شيء غير هذا. كُنْ نفسَكَ، لأنّه ربّما بهذا ستكتشفُ أنّه قدْ تكون أفضلَ من هؤلاء جميعاً، إذا أردتَ طبعاً ذلك من كلّ قلبك وروحكَ، وإلّا فما قيمةُ خَلْقِ اللهِ لكَ؟ اللهُ بديع السّماوات والأرض، لا شيءَ يخلقُه يتكرّرُ أو يتشابهُ أبداً، وما من شيء في الكون إلّا وتوجَدُ منه نسخةٌ واحدة فقط. وهذا ينطبق عليكَ أنت أيضاً: انظر إذن بداخلك، واعرف نفسك من تكون. وتذكّر أنّ المسيح واحد لا يتكرّر،

ومحمدّاً كذلك، ومريم وفاطمة وهلمّ جرّاً. هذا هو سرّ الحياة الّذي يتطلّبُ منكَ أن تعيش بقلبٍ حيّ وشجاع، وتذكّر جيّداً أنّ الحياة ليست ثابتة وإنّما هي المتحوّلة والمتغيّرة دائماً، لا شيء فيها مضمون، ولا شيء فيها يدعو إلى الاطمئنان والخمول، عليك أن تكون متيقّظاً، ومتأهّباً ومستعدّاً لكلّ شيء، وتذكّر أيضاً أنّني لستُ هنا لأعطيكَ شروحاتٍ جاهزةً، لأنّها هي أيضاً غيْرُ ثابتة، وكما هي صالحة لكَ، فقد لا تكون كذلكَ بالنّسبة لغيركَ، وكما قد تكون صالحة اليومَ فقد لن يصبح لها أيّة قيمةٍ غداً. وصايا العديد من الأنبياء كانتْ صالحَةً لفترة معيّنة من الزّمان، ولو عادُوا اليوم لا أعتقدُ أنّهمُ سيأتون بنفس الوصايا والكتب. هي هكذا الحياة، هذا هو قانُونها الأوحَد، إنّها شلّال هادر، عاصفة هائجة، أنهار متدفّقة، حركة دائبة نحو الأمام الأبديّ اللّامنتهي، لذا عليك أن تفتحَ نوافذ جديدة في أعماقك لتتحقّقَ لكَ كينونتكَ وتتفاعلَ وتَنْسَجم معها ليس بعقلك فقط، وإنَّما بقلبك أوّلاً وقبل كلّ شيء، لأنّك إذا فعلت هذا فستكون قد أدركْتَ السّرّ.

## (٦)
## تحتَ فيءِ شجرة المحبّة

أيُّها المحبّ، مازال قابيل يقتلُ هابيل، فيروس كورنا، الشرّ الجديد يقول لك هذا، والنفوس المسجونة في الصّدور لها رائحة البيض النيّء، أقول هذا لأنّه في العام الماضي، حدثتْ لي رؤى عرفانيّة كنتُ أحارُ في أمرها، وأطرح بشأنها العديد من الأسئلة! كنتُ أرى بعين الرّوح الكثير من الوجوه ذات السّمة الملكيّة في حالة انتظار. غرف فسيحة وقد اصطفّ فيها العديد من الأشخاص بمظهرهم الملكيّ الباهر وهم في حالة انتظار، منهم الواقفون ومنهم الجالسون فوق أرض لا يحدّها مكان ولا زمان. ثمّ شهراً بعد شهر فهمتُ بأن مكان الانتظار ذاك هُو نوع من السّجن الّذي يعيش فيه هؤلاء النّاس الّذين كانوا يأتون لزيارتي وعرض حالهم عليّ. ثمّ مرّت فترات أخرى، وأُلْقِي في قلبي أن هؤلاء ليسوا بأشخاص أو أناس عاديين، وإنما هم تجسّدات للنّفس البشرية بشتى تمظهراتها وألوانها، ولأنّها من خلق مَلك الملوك فهي تأتي بصفتها الحقّة ومظهرها الملكيّ الأوّل، أيْ بالتّيجان والعيون الصّقيلة الكحيلة والأثواب البيضاء اللامعة. ثمّ بعد ذلك عُرِضَتْ عليّ القِدر الكونيّة الكبيرة ورأيتُ في مائها العديد من الوجوه المتشكّلة بعيون عديدة، وكانت له رائحة غريبة، تشبه رائحة البيض، فأصابني الدّوار والغثيان، ومرّت أيّام بعد أيّام، وبدأت الرؤيا تتّضح أكثر فأكثر وظهرتْ معاني جديدة كنتُ أسطّرها في قصائدي ودواويني الصّادرة في العراق عن دار الفرات للثقافة والإعلام، إلى أن أتى كورونا، وظهر السّجنُ الكبير الّذي

كنتُ أرى فيه النّاس بتيجانهم وهم في حالة انتظار أو بعبارة أكثر دقّة في حالة حجر صحّيّ، واهتزّت الدّنيا، وانتشر الهلع في قلوب النّاس، وتوقّفت الرؤى القادمة من قِدر التّخليق، لأنّ الأمر تجاوز حدود عين الرّوح وأصبح متجسّداً على أرض الواقع المادّيّ. وبقيتُ في بيتي ثلاثة أشهر كاملة، لم أخرج فيها أبداً، ولا رأيتُ ولا كلّمتُ فيها أحداً، وانشغلتُ بحياتي الإبداعيّة والمنزليّة، وحينما كنتُ أشعر ببعض الضّيق كنتُ أخرج إلى شرفتي الكبيرة الطّويلة، دون أن أنسى ممارسة الرياضة داخل المنزل، وكنت أحرص كما العادة على أن يكون أكلي صحيّاً وسليماً، خالياً من الملح والسكّر والدهون وما إليها. ثمّ انتهى الحجر الصحّي في إيطاليا، وقررتُ أن أخرج ولو بشكل خاطف، لأرى ما الّذي حدث أو تغيّر في الخارج، وذلك ما قمتُ به فعلاً ولأكثر من مرّة ووجدتُ الحياة مستمرّة كما هي: الأسواق مفتوحة، سيارات الشرطة تجوب الشوارع، وبعضها يقف أمام متاجر التبضّع الكبرى، والنّاس هُمُ النّاس مع فارق بسيط، كانوا يرتدون الكمّامات والقفّازات، وبينما كنتُ أتجوّلُ لاحظتُ شيئاً غريباً، كانت هناك في الجوّ رائحة تشبه رائحة البيض النّيّء، أصابني دوار خفيف، وشعور بالغثيان، تذكّرتُ قِدْرَ التّخليق وفهمتُ كلّ شيء: النّفوس، كلّ النّفوس البشريّة والحيوانيّة والنباتيّة، هي الآن في حالة اختمار وتحوّل، هناك مسار من التحلّل والتعفّن الّذي سيليه موتٌ ثمّ ولادة جديدة. الإنسان الآن في هذه المرحلة من الحياة، إنه في حالة تفسّخ، ولا أعني به التفسّخ الجسديّ المادّي، وإنّما الدّاخلي الرّوحيّ، لأنّ الأجساد الماديّة حيّة وإن ظاهريّاً، ولكن الميت الحقيقيّ الآن هو النّفس وهي في حالة تحلّل ذاتي سيتبعه ولا شك تفكّك للهيكل الأثيريّ، ثمّ ولادة جديدة. كورونا وكلّ مرض أو وباء كما ترى ليسا شرّاً، إنّما هو إعلان عن ولادة جديدة في

الطّريق، والشرّ الحق لا يظهر إلّا حينما تغيب المحبّة، وتجفّ أنهار الدّنيا من ماء الحبّ. لذا وجب عليكَ أن تعرف أن الحبّ هو معراجك الوحيد من الجحيم إلى الفردوس، وأنّ كلّ من يسأل عن الله هو في الحقيقة يسأل عن الحبّ، ومن عرف الحبَّ عرفَ المحبوب. ليست المشكلة في أين هو الله ولماذا يسمح بتجلّي الشرّ في حياتكَ، مرضاً كان أو حرباً أو كارثة طبيعية أو إرهاباً، إنّما المشكلة في أينكَ أنت؟ ولماذا أنت لليوم أعمى وأصمّ وبدون أيّ نوع من الإحساس لتشعر بوجود الله أو وجود الحبّ في كلّ مكان؟ فأين باللّه عليك ستبحث عنه وكل موجود هُو، إنّه الكيمياء الوحيدة التي تغيّرُ الكون. لذا أقول لك لا تنتظر التغيير في الخارج، إنّما كلّ شيء يتغيّر بداخلك وحينما ستكون ممتلئاً بالحبّ ستنفتح كلّياً على عالم جديد، وقلبك سيصبح ناياً بين شفتي الله، تخرج منه أنشودة عظيمة هي دينكَ الحقّ، ليس ذاك الّذي تلقيته في المعابد والكنائس والمساجد وعبر الطّقوس المختلفة، وإنّما ذاك الّذي ينبع من محرابك الدّاخليّ وبئركَ العميقة والتي بها سترى أن الحياة أغنية رائعة، والوجود في تناغم ووئام مبهرين. دعني أروي لك حكاية بيداغوجيّة أخيرة بها أختم رحلتي الخيميائيّة معك: [ذهب أحد الفلاسفة إلى امرأة صوفيّة حكيمة وقال لها: ((علّميني الكتب المقدّسة في جلسة واحدة))، وكان يعلمُ جيّداً أنّ هذه الكتب السّماوية واسعة عريضة وتحتاج إلى العمر كلّه لمن يريد دراستها بشكل جِدّي، لكنّه حينما لمس صمتَ الصّوفيّة العارفة العميق، أضاف قائلاً لها بنبرة فيها شيء من التحدّي: ((لا شكّ أنّك تعرفين الكتب المقدّسة عن ظهر قلب، لكنّي أريد منكِ أن تحدّثيني فقط عن الأهمّ فيها والأشدّ والأكثر قيمة في مدّة زمنية وجيزة جدّاً)). رمته بنظرة ثاقبة وعرفت أنّه كان عند فلاسفة ومفكّرين آخرين وطرح عليهم القضيّة ذاتها

ولأنهم لم يكونوا من أهل العرفان والتصوّف قالوا له: ((هذا أمر لا يستقيم، ولن تجد في الأرض قاطبة أحداً يمكنه أن يُعلّمك الكتب المقدّسة في جلسة واحدة)). ابتسمتِ السيّدة ثم قبلت التحدّي، وقالت له: ((افعل للآخرين ما تحبّ أن يفعله الآخرون لك، ولا تفعل للآخرين ما لا تحبّ أن يفعله الآخرون لك. هذه هي كلّ الكتب المقدّسة، والباقي كلّه شروحات وتعليقات)). ابتسم الفيلسوف، ثم خرج من عندها وهو يعلمُ أنّها أعطته درس الحبّ الأعظم الّذي تقوم عليه كلّ الدّيانات وتنادي به كلّ الكتب المقدّسة، لقد قالت له: أحبّ الآخرين كما تحبّ نفسكَ وأكثر، ولا تنظر لهم على أنّهم آخرين منفصلين عنكَ، إنّما أنت وهم شيء واحد، أغنيّة واحدة، بحث واحد عن الله، وقلب واحد وانتشاء واحد في حضرة هذا الوجود الّذي هو الحبّ المطلق!

**الهوامش:**

(١) مفكر وكاتب عراقي، متخصص في الفلسفة الإسلامية وله رؤية فلسفية حول الإصلاح ومناهج التفكير الديني. مدير مركز دراسات فلسفة الدين في بغداد، ومستشار تحرير لمجلات ودوريات متعددة، يرأس تحرير مجلة قضايا إسلامية معاصرة منذ إصدارها عا ١٩٩٧ وحتى الآن. أصدر سلسلة كتاب "فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد". من بين كتبه: "الاجتهاد الكلامي"، و"مقاصد الشريعة "وفلسفة الفقه" و"فلسفة الدين"، و"علم الكلام الجديد"، و"إنقاذ النزعة الإنسانية في الدين".

(٢) على هذا الرّابط تجد أعدادا متنوعّة من مجلّة قضايا إسلامية معاصرة: ./http://www.sooqukaz.com

(٣) لا يوجد فعليّاً في الكون شيء اسمه عُلويّ وسفليّ، فالقطب الأنثويّ هو التّكوين الإلهيّ النّقيّ، وهو رحمُ الإبداع الّذي منه انبعثت الخليقة، والعالم العلويّ ليس هو القسم الأعلى من البيضة الكونيّة بل الثالوث الأعلى من شجرة الحياة، التي رمز لها أهل الأسرار بشجرة حواء وآدم في الفردوس، وهي مؤلّفة من ثلاثة متواليات والعلويّ منها يمثل العالم التجاوزيّ المتحرّر من عاملي الزّمان والمكان، بينما العالم الدنيوي أو الجزء السُّفليّ من بيضة الكون إنّما هو الثّالوث الأخير وما يليه من تجسيد مادّي للكون.

(٤) الأعراف: الآية ١٨٩.

(٥) المولى محمد صالح المازندرانيّ، شرح أصول الكافي، النّسخة الإلكترونيّة، الجزء ١٢، ص ٩.

(٦) انظر في هذا الصّدد، حديثنا عن شجرة الحياة في مقدّمة الإصدار الجديد: شجرةُ التّين والأفعى، تأمّلات نقدية عرفانيّة في دنيا أهل الحرف، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٢٠.

(٧) أعني هُنا بالبرزخيْن، العالمَيْن الدنيويّ والعُلويّ، الأوّل عذب ونقيّ وطاهر والثّاني مالح وشديد المرارة، أمّا الفاصل بينهما فهو المكان الّذي يظهر فيه المخلّصُ:

آدم، عيسى، الإمام المنتظر، وهي كلّها أسماء تعني بزوغ الشّمس الباطنيّة وبلوغ السّالك ذروة الفناء والتجرّد.

(٨) الذّاريات: الآية ٥٦.

(٩) الفرقان: الآية ٣١.

(١٠) الأنعام: الآية ٣٩.

(١١) الإسراء: الآية ٤٤.

(١٢) الروم: الآية ٣٢.

(١٣) النّمل: الآية ٦٢.

(١٤) الجحيم كالجنّة، حالة روحيّة وكلّ ما له علاقة بالرّوح تتجسّدُ صُورُه، وهذا يعني أنّ عملَ الإنسان يأخذُ صوراً معيّنةً حينما يتعلّقُ الأمرُ بالعالم الأثيريّ. الجنة والنّار مفهومان كيميائيّان خالصان، وهمَا نتيجتان منطقيَّتان لعمل كلّ إنسان وتطوّرِه المعراجيّ، ولأنّ النّاسَ لليوم يعتمدون في عملهم على معرفتهم العقليّة، فإن حياتَهُم حالة من الجنون الخالص، وكيف لا وقد فقدوا الطّريق الأمثل إلى المعرفة الّذي هو القلبُ ثمّ الرّوح. عقلُ الإنسان اليوم أصبح عبارة عن مستنقع وا أسفاه، في الوقت الَّذي كان من المفترض أن يكون عقلُه كقلبهِ بئراً، لا مستنقعاً ولا بُحيرةً.

(١٥) المائدة: ١١٦-١١٨.

(١٦) الرّعد: ٣٩.

(١٧) التوبة:١١٤.

(١٨) المائدة: ١١٩.

(١٩) فصّلت: ٥٣.

(٢٠) طه: ٩-١٢.

# (III)
# قراءات عرفانيّة في فكر عبد الجبّار الرّفاعي

أنْ تَصِلَكَ كُتبُ المُفكِّر العراقيّ د. عبد الجبّار الرّفاعيّ وتقرأَهَا وأنتَ في المَهْجَر الغربيّ الإيطاليّ تحديداً، يعني ولا شكَّ الكثيرَ مِن الأشياء، أهمّها إيقاظُ جِراح الذّات الكونيّة المتعلّقة بالانتماء والهويّة والدّين. نعم، الرّفاعيّ بكُتُبِه الأخيرة بيْن يديّ (١) فعلَ هذا وأكثر: أيقظَ كلَّ ما كنتُ أعتقِدُ أنّني تجاوزتُه بدفني لهُ في طامورة "النّسيان" أو التّناسي بتعبير أكثر دقّة. لقد أعادني إلى سنوات إقامتي المهجريّة الأوروبيّة الأولى، حينما كُنتُ أرفضُ مُعْظمَ الدّعوات التي كانت تُوَجَّهُ إليّ من أجلِ المشاركةِ داخلَ أو خارج إيطاليا في ندوات ومُحاضراتٍ تتناولُ الفِكرَ الإسلاميَّ ومواضيعَ تخصُّ وضعيّة المرأة وحقوقها "المهضومة" في العالم العربيّ، وكان لرفضي هذا أسباب عدّة؛ أوّلُهَا سياسة الكَيْل بمكياليْن المُنْتَهَجَة تجاهَ مواضيع بهذا الشّكل من الحساسيّة والتّعقيد، حيث غالباً ما كانتْ تُوَجَّهُ لفكر الآخر "العربيّ المُسلمِ" أصابعُ الاتّهام والمُساءلة، دون الخوض تاريخيّاً في موروث الدّيانات في العالم الغربيّ وما كانت تعيشُه من صراعات دمويّة مازالت تُلقي بظلالها على العديد من البلدان الأوربيّة وغيرها إلى اليوم. أمّا عن السّبب الثّاني فكان السّطحيّة التي عادةً ما تُعالَجُ بها هذه المواضيع حتّى وإن كانَ المحاضرون بشأنها من كبار المختصّين في السّؤال الدّيني أو اللّاهوتيّ بشكل خاصّ، إذ تجدُ معظمَهم يناقشُ الأمورَ بعين لا ترى شيئاً أمامَها ولا تزِن القضايا إلّا بميزان الحيْف الّذي تمارسه "ماكينة" الإعلام الغربيّ عبر

نِظام مُمَنْهَجٍ لغَسْل دماغ المتلقّي الأوروبيّ وإعادة برمجتهِ، وتجذير مشاعر الرّعب والخوف من الآخر "الأجنبيّ" بداخله. ثالث الأسباب ولا أجدهُ يقلّ أهمّية عمّا ذكرتُ سابقاً هو عزّة نفسي، وشُمُوخ كينونتي، وعُمق انتمائي لثقافتي، كلّ هذا كان يجعلني أرفضُ رفضاً قاطعاً أن أضعَ نفسي في موقفِ المُدافِع عن ديني وثقافتي، وتبرير ما لا يُبَرَّرُ، لا سيما وأنّني نشأتُ في بلدي الأمّ المغرب، وسطَ بيئة تعدّديّة تؤمنُ بالاختلاف وترى في الإيمان والمحبّة الإلهيَيْن طريقاً من طُرق تحرير الفكر والرّقيّ بالرّوح إلى مدارج السّمو والنّقاء والبهاء الإنسانيّ الكامل.

كم كانَ مُوجعاً في سنوات المهجَرِ الأولى أن أجدَ مَن هبَّ ودبّ ممّن يدّعي الثقافة والتحضُّرَ يسألني عن "العُنف" في الإسلام من أين يأتي؟ وعن "ذلّ" المرأة ومهانتها في بيت الرّجل العربيّ كيف تحتَمِلُه وتطيقه؟ وعن نبيّ الرّحمة محمّد لماذا تزوّج بالطّفلة الصّغيرة عائشة، وفي عيونهم ألفُ تلميح وتلميح لما يسمّى بـ"البيدوفيليّة"! بل كان فيهم من لا يُطيق الحديث عن الدّين أو الإيمان بشكل عامّ، ويشكّكُ في عذريّة مريم (ع) ويسائلها بعين الاتهام عن عيسى من أين أتت به (ع) فجعلتهم من وجهة نظرهم أضحوكة أمام العالم أجمع، وأرغمتهم على التّصديق برواية لا أساس لها من الصحّة، وكنتُ حينذاك ألوذ بالصّمتِ وأستشعرُ يداً غيبيّةً تخيط شفتيّ بإبر من فضّة خيوطها من ذهبٍ حتّى لا أدخل في مهاتراتٍ مع من لا يعرفُ عن دينه شيئاً، فما بالكَ بديانات "الآخرين"، ثمّ جاءت أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، فزادتِ الطّينَ بلّة، وانفجرت بعدها صاعقة داعش وتعقّدتِ الأمورُ أكثر وأكثر، وأصبح من الصّعب الخوض في كلّ هذا وقد اختلطتِ الأوراقُ أمام غياب إعلام عربيّ إسلاميٍّ نزيه يُشَرِّحُ بمِبضع النّقد والتحليل قضايا العُنف

والإرهاب التي تتستّرُ وراء لباس الدّين، وأصبحتُ أتمسّكُ كلّ يومٍ أكثر فأكثر بموقف الرّفض، وتفادي الزجّ بنفسي في متاهاتٍ لا أوّل لها ولا آخر من خلال النّقاش في مواضيع محسومة من البداية ومن كافّة الجوانب، لأنّ أهل الحقيقة يعلمون جيّداً أنّ كلّ هذه العواصف العُنفيّة والإرهابيّة المدمّرة لا علاقة لها بالدّين الإسلاميّ ولا بالمسلمين الأحقّاء وإنّما هي سياسات دوليّة أعمق وأكبر منْ أن يستوعبَها عقلُ مواطن بسيط مهما بلغت درجة ثقافته وعِلمه. لكنْ ما العملُ ولليوم مازال هناكَ من يقول لكَ، كيف يدّعي المسلمون بأنّ ما يحدث من إرهاب وعنفٍ لا علاقة له بدينهم، وهُم يستمدّون كلّ هذا من القرآن الكريم، وكتبِ الفقه والشّريعة، وأوّل ما يستدلّون لكَ به سورة "السّيف"؟! وهنا لا يُمكنُ إنكار حالة الذّهول التي قد يُصابُ بها المرء، فالقرآن حقّاً فيه سورة "السّيف" هذه، واسمها الحقيقيّ هو سورة التوبة أو سورة براءة، وهي نفسها الإشارة التي التقطَها عبد الجبّار الرّفاعي في كتابه (الدّين والاغتراب الميتافيزيقيّ)، حينما قال بأنّ كلمة السّيف مع أنّها لمْ تَرِدْ في القرآن، إلّا أنّ المفسّرين سمّوا هذه السّورة بهذا الاسم، والغريب أنّ أكثرهُم من المشهورين، الذين ادّعوا أنّها ناسخة للكثير من الآيات التي تدعو للسّلم والعفو والصّفح والغفران والرّحمة (٢). كيف سأردُّ على هذه السّورة والحال أنّها كلّها قتال في قتال وحرب ومواجهة وسيف؟! أيُّ جرحٍ هذا يا إلهي، وذاتي الباطنيّة الدّاخلية العميقة ترى غير ما يراهُ الآخرون بشأن هذه السّورة بالتّحديد. وأعني هنا بعبارة "الذّات الباطنيّة" تلك التي عرّفهَا الرّفاعيّ قائلاً عنها بأنّها "تنطوي على الكثير من الأسرار، وكيف لا، وهي التي تتخصّبُ وتغتني بمنابع إلهامها وديناميّاتها الجوّانية، وتتحقّقُ على الدّوام حين تشرع بوجودها وتجاربها وحياتها الخاصّة التي لا يُمكن اختراقها

واكتشاف مدياتها إلّا بحدود ما تبوح به" (٣). هنا المعضلة، في هذا الّذي يُباح به ويُكشَفُ عن أسراره، أقول هذا وبين يديّ الآن قارئيَ الإلكترونيّ، وفيه كتب عبد الجبّار، وأنا في حديقة إيطاليّة، اسمها "فيلّا جوليا" (٤)، أفتح كتاب (الدّين والاغتراب الميتافيزيقيّ) وأقرأ منه ما قاله الرّفاعيّ في تعليقه على سورة "السّيف" هذه، وأتوقّفُ طويلاً لأسمع صوتَهُ وهو يُرَدّدُ: (إنّ كلّ من يقرأ القرآنَ، يجدُ العنفَ ماثلاً بتعبيرات مختلفة في بعض آياته ، فمثلاً وردت كلمة "قتال" والكلمات ذات الصّلة بها في القرآن بحدود ١٧٠ مرّة. ويعود نفي أيُّ شكل للعنف في لغة القرآن إلى تجاهل سياقات النّزول في محيط الجزيرة العربيّة [...] ومفتاح دراسة العنف في لغة القرآن هو نمط حياة الأمّة التي نزل فيها وبنية لغتها وأساليب تعبيرها، إنّ ألفاظ اللّغة ومصطلحات معجمها وأساليب بيانها والحضور المتنوّع للعنف في الحياة العربيّة وأثره الواضح في رسم أنماط العلاقات المجتمعيّة في عصر البعثة، كلّها كانت قيوداً ضاقت بسعة الرّحمة الإلهيّة وعجزت عن أنْ تستوعب تجلّيات غريزة الرّحمة في شخصية ودعوة المبعوث رحمة للعالمين. النبيّ محمّد "ص" أحد أعظم دعاة الحرية ومن أرسوا أسسها في التاريخ البشريّ، عاش في مجتمع يؤسّسُ العنفُ حياته، ويحوك العنف نسيج علاقاته الاجتماعية، وتنبثق من العنف تقاليده وعاداته. [...] في مثل هذا المجتمع لا يُمكن لثائرٍ على كلّ أشكال الاستعباد وهتك الكرامة البشريّة، إلّا أن يستعير شيئاً من عنف لغة المجتمع الذي يخاطبه بدعوته، ويتسلّح بمواقف صارمة؛ لا تخور أمام عنف لغتهم، ولا تنهزم أمام عدوانيتهم، ولا تتراجع أمام توحّش بعضهم، لغة العنف في آيات القرآن تعكس أنطولوجيا لغويّة

عنيفة كانت ماثلة في الحياة العربيّة وأيّة محاولة تخفي ذلكَ فإنّها تسيء للقرآن عندما تنكر ماهو صريح واضح فيه) (٥).

يا لغزارة النّزيف الدّاخليّ أمام هذه الحقيقة التي لا يُمكن إنكارها بأيّ وجه من الأوجه، نزيفٌ يجعلني في الوقت ذاته أتشظّى وأنا أتذكّرُ كلماتِ الرّفاعيّ في الكتاب ذاته وأعيد الإنصات إليه وهو يقول: "القرآن الكريمُ كتابٌ تسري فيه روح واحدة، مضامينه تتوحّد في نسيج عضويّ متماسك، ويسوده نظام كلّيّ يتطلّب فهمُه أن نكتشف المنطق الذّاتي الّذي يتحدّث فيه القرآن عن نفسه. ففي القرآن كلّ فكرة ومقولة تتحدث للأخرى، وتتبصّرُ كلّ آية دلالتَها ووجهتها في أفق آياته الأخرى بمجموعها. القرآن كتاب تحيل فيه الفروع على الأصول، والجزئيات على الكليات، والصغريات على الكبريات. نحن بحاجة ماسّة إلى منهجٍ بديل في فهم القرآن، يحرّره من أسوار الأفق التاريخيّ التكراريّ المغلق للمفسّرين، الذي أفضى لنضوب حضور الروافد الملهِمة للمعنى والأخلاق في القرآن. وعلى الرّغم من ضجيج أصوات الجماعات الدّينيّة، وضوضاء صيحات شعاراتهم في الحديث عن القرآن، وكلامهم المبسّط في نسبة كلّ شيء إليه، وإن كان على الضدّ من منطقه وما ينشده، لكن قلّما نعثر على رؤية تتبصّرُ متطلّبات الحياة الرّوحية وبناء الضمير الأخلاقي للمسلم المعاصر في سياق قرآني. إنّ هذه الرؤية البديلة تفرضها ضرورة إعادة اكتشاف الأبعاد المضيئة للحياة الروحية والجمالية في القرآن، كما يفرضها أيضاً افتقار المسلم اليوم لمعنى عميق لحياته، وضياعه في كهوف التراث التي لا تقوده إلّا لمزيد من الضّياع. رأيتُ الرّحمة تمثل مفتاح فهم المنطق الدّاخلي للقرآن، فقد اتخذت الرّحمة فضاء واسعاً في القرآن الكريم لم تتخذه في الكتاب المقدّس وغيره من نصوص الأديان، إذ

وردت بصيغ متوّعة في القرآن تصرّح بشمولها كلّ شيء وعدم خروج أيّ شيء عنها"(٦).

وفي ظلّ ما يقوله عبد الجبّار يتوهّج سؤال آخر بداخلي، فمادامتِ الرّحمة هي المنطق الّذي يحكم القرآن وجميع سوره ورسائله وخطاباته، فأين الخلل إذن؟ لماذا لا يحاول المفسّرون لليوم إلغاء كلّ ما قيل من مفاهيم كارثيّة روّجوا لها على مرور المئات من السنين؟ لماذا لا يجتمع أهل الرّشاد فيهم على قول واحد يشطبون به كلّ أخطاء الماضي؟ سؤالي طبعاً سيظلّ من النّوع المجازي لا أقلّ ولا أكثر، لكنّ حلّ معضلة هذه الهوّة السّحيقة التي تفصلُ بين موقف المتشبّثين بتراثيّات الماضي وبكائيّات أمجاده الوهميّة، وموقف أهل الحقيقة السّاعين أبداً إلى إيقاف نزيف الرّوح الّذي تسبّب فيه تراكم الأخطاء المعرفيّة الفادحة أجدُه ماثلاً أمامي وأنا أجول بحركة بصريّة دائريّة أحيطُ بها كلّ أطراف حديقة فيلّا جوليا فأجدها تخاطبني بأبجديّة أخرى، وأرى فيها كتاباً جديداً يدعوني لقراءته بلغة أهل التصوّف والعرفان الفلسفيّ، ذاك الّذي يراه الرّفاعي: "تصوّفاً عقليّاً خرجَ على الأنساق المغلقة الحرفيّة لقراءة النّصوص الدّينيّة، وأنتج قراءة للنصوص خارج إطار مناهج وأدوات القراءة والفهم والنظر والتفكير الموروثة، بنحو منح للمسلم أفقاً رحباً في التأويل، وإنتاج قراءات تتوالد منها قراءات أخرى حيّة على الدّوام في فضاء يواكب متغيّرات الحياة"(٧). وأصيخ السّمع أكثر فأكثر فتصلني أصواتُ الأعمال الفنّيّة المنحوتةِ في كلّ أطراف هذا المكان، وكلّها تقول لي إنّ لكلّ وجود ظاهريّ لنا في هذه الحديقة معنى خفيّاً يتجاوز الأمكنة والأزمنة بالضّبط كما قال الرّفاعي، بحيث أن العالم بالنسبة له: "يستوعب أشياء لا حصر لها لا ندركُ معناها، والدّين يمعنن ذلك، يفكُّ الألغاز، أو

تغدو الألغاز من منظور المتديّن ذات مضمون، يفيض بمعانٍ يسقيها من رؤيته الدّينيّة" (٨). أنظرُ حولي فيطالعني أسدان متأهّبان للانطلاق يقولان بأنّ زمن الكشف لم يحِن بعد، ثمّ ألتفتُ مرّة أخرى فأرى جواكّينو روسّيني، الموسيقي الفذّ الّذي جدّد في الفكر الموسيقيّ الغربيّ وأخرج الرّوح الإيطاليّة من أقبية أحزانها ساعياً بها إلى مدارج وآفاق فسيحة من النّور والحريّة عبر اللّحن الشفيف والنّغم السّاحر، وفي الطّرف الآخر أرى أرخميدس مجدّد العلوم الحقّة، وتيوكريتوس رائد الشّعر الرّعويّ، وأبولّو إله النبوءة والشّفاء والتألّق، فأجدني بين هذه الوجوه التّاريخيّة والأسطورية أسبح في إشراقات من البهجة الرّوحيّة التي ليس لها مثيل والّتي تبلغ الذّروة حينما تقعُ عيني على تمثال عبقريّ وشفيع مدينة بلرم وبين يديه أفعى الحكمة يطعمها من صدره إكسير المعرفة، وبالقرب منه نسر كبير كرمزٍ لانتصارات الرّوح في حروبها من أجل بلوغ سدرة المنتهى، وفي الجهة الأخرى أرى طفلاً عجيباً يحمل فوق رأسه ساعة باثني عشر واجهة، في كلّ واحدة منها ساعة شمسيّة تقول بأنّ زمن الصّعود والتّحليق مازال بعيداً، مادام صبيّ الحديقة المعلّم الأسمر الجالس فوق وسادة نحاسيّة لم يسلّمكِ بعد عصا الحكمة التي بها يُختتمُ السّفر العرفانيّ بين أرجاء هذا المكان الخلّاب. ارفع عينيّ وأتذكّرُ صديقي الألمانيّ يوهان غوته الّذي زار قبلي بمئات السّنين فيلّا جوليا، وعرف مثلي أنّه ليس في حضرة حديقة عاديّة بل جنّة حافلة برموز أهل المعرفة والفلسفة المتمثّلة بشكل المكان الدّائريّ المُجسِّدِ لصورة الكون الميتافيزيقيّ والّذي يقتضي من السّالك خوض سفرٍ روحيّ عميق كذاك الّذي قام به هوميروس المخلّد في الأوديسّا والتي من وحيها ألّف غوته وهو في فيلّا جوليا عمله "ناوْسيكا" والّذي بقيَ غير مكتملٍ لليوم. وبصورة غوته أمامي، وكلام عبد

الجبّار عن لغة العنف في القرآن يأتي المعنى ويجلسُ عند قدميّ وهو يذرف بدل الدّمع دماً، فأمسكُ بوجهه وأمسح بيدي على جبينه وأكفكف دمعه ثمّ أسأله الحلّ لكلّ هذه المتاهات الفكريّة الدّوّامية فيُشير عليّ بكلمات قالها عبد الجبّار عن والدته رحمها الله وهو يصفها بالمرأة التي كانت تمتلكُ خبرة جيّدة في رواية الملاحم ومحاولات تطبيقها على ما يسود حياة مجتمع القرية المحدود، بحيث كان يستمع إليها في طفولته وهي تتحدّث بإسهاب مع صديقاتها، وهنّ يصغين بإمعان لما تتحدّث به من حكايات خرافيّة عتيقة وقصص ميثولوجيّة غابرة، حينما يعود إليها اليوم يجدها الرّفاعيّ غنيّة بالرّموز والعلامات والإشارات ذات الكثافة الدلالية التي يتيح تأويلها التعرّف على الأنساق الرّمزية ويكشف لنا عن طبقات المعنى المحوريّة الرّابضة في البنى التحتيّة العميقة للمجتمع الرّيفي (٩). ومن هذه الكلمات يتبرعم في حديقة الأسرار سؤال جديد: لماذا لم يحاول أهل التّفسير قديماً العمل على هذا الجانب الدّلاليّ الرّمزيّ للنصّ القرآني وكلّ آية فيه تحمل عنوانا سيميائيّاً بامتيازٍ، بين شمس وقمر ونساء، وطارقٍ ومائدة وبقرة وناقة، ونجمٍ وناس وفلق وفجرٍ، وعاديات وذاريات وصافّات وما إليها من الأسماء التي تعلن وتفصح عن معاني أشدّ عمقاً من تلك التي سطّرتها كتب التراث القديمة والتي أتت بنيران ظلماتها على الأخضر واليابس في كلّ المنظومة الفكريّة العربيّة الإسلاميّة؟!

عبد الجبّار الرّفاعيّ يعرفُ أكثر منّي أنّ لغة القرآن الكريم وأسماء سوره وشخوصه وأبطال أحداثه تنتمي كلّها إلى الحقل الرّمزيّ السيميائيّ، الّذي يحتاج اليوم لمفاتيح خاصّة من أجل الوقوف على وجه جديد من معانيه، وكيف لا وهو المتسائل عن جدوى احتماء الآباء في قريته بأسماء

منفّرة يعطونها لأبنائهم علّ ذلك ينقذهم من الوفيات المبكرة، فكانوا بذلك يعلنون شيئاً، ويتكتّمون على ضدّه (١٠)، هكذا كان العرب، أهل رمز وحجب وتواري وراء المعاني، ولأجل هذا ظهرت لغة القرآن كلغةٍ تختلف عن كلّ لغات الكتب السماوية التي سبقته، وكان خطابه موجّهاً للعالمين، ولم تكن الأحداث التي فيه تعني أقواماً معيّنة بعينها وإنّما تعني الجميع، يكفي فقط العثور على مفاتيحها الحقّة التي كان يعرفها جيّداً العرب آنذاك وإن نُعتَ عهدُهم بالجاهليّة، وليسوا منها في شيءٍ، فقد كانوا على دراية بالعديد من العلوم وعرفت المنطقة العربيّة العديد من الحضارات البائدة التي بلغت من التقدّم آنذاك ما لم يخطر على بال بشر وإرم التي لم يُخلق مثلها في البلاد تشهد على ذلك. العرب إذن وأهل الكتاب منهم، وأعني بهم هنا رجال الدّين والكهنوت الأعلى كانوا يعرفون لغة القرآن جيّداً، وحروفة المقطّعة وأسماءه ورموزه كاملةً، ولم يكن النبيّ محمّد يتحرّج أبداً في مخاطبتهم به، لأنّه خطاب روح ونفس، والحروب التي فيه، وفي سورة التوبة مثلاً إنّما هي حروب على المستوى الباطنيّ للنّفس، أيْ على المستوى العرفانيّ الخالص الذي لم يكن حاضراً بهذه الصيغة الجديدة لدى فلاسفة اليونان، وقد عجزت أعظم كتب فلاسفة تلك العصور عن بلوغها، وهذه هي معجزة الرّسول الأكرم لأنه كان على معرفة بمبدأ الوحي بحيث يكشف له أسرار الوجود، وكان هو بدوره يرى الحقائق بوضوح وبدون أيّ حجاب وذلك بعروجه وارتقائه قمّة كمال الإنسانيّة، وفي ذات الوقت كان حاضراً في جميع أبعاد الإنسانيّة ومراحل الوجود، فمثّل بذلك أسمى مظهر لـ (هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن)(١١)، كما سعى إلى رفع جميع النّاس للوصول إلى تلك

المرتبة، وكان يتحمّل الآلام والمعاناة حينما كان يراهم عاجزين عن بلوغ ذلك(١٢).

محمّد (ص)، هو القلب الكونيّ الّذي تلقّى كلمات ربّه بأسلوب جديد، يصف حروب النّفس، أو حروب الأرض التي تنقلبُ فيها الأعمال وتتجسّدُ بصور مختلفة تجتمع فيها الحيوانات، والحشرات والهوام والزّواحف، وصور الإنسان ذكراً كان أو أنثى، وتتمثّل فيها الأماكن بالجبال والمفاوز والصحاري والغابات والوديان والرّياح والنيران، وكلّ ماهو ظاهر وغير ظاهر في كون الظهور وأكوان البرازخ والغيبيّات، فإذا عمل الإنسان عملاً صالحاً فإنّ هذا العمل يؤثّر على قلبه ويجعله مهيّئاً لنزول البركات، أمّا إذا كان القلب مفعماً بالحسد مثلاً أو الغضب أو حبّ الدّنيا وما إليها من ملكات أخرى خبيثة فإنّ ذلك يحجبه ويعتم مرآته فيتعذّر عليه التوجّه للغيب، وحلول الرّحمة فيه(١٣).

تحدّث القرآن كثيراً عن النّفس وأهوائها وحروبها، وكما لقّبها اليونان قديما ببيرسيفون، التي تعني بؤبؤ العين فإنّ العرب لقّبوها بقرّة العين وما من فراغ شبّهت إيزيس النّفسَ خلال أحاديثها مع حورس بالعين والجفون التي تحيط بها، وذلكَ لأنّها تمثّلُ مبدأ الإدراك المستيقظ الّذي لا ينام أبداً، وأهل الذّوق يعلمون هذا جيّداً وكثير منهم رأوا هذه العين (١٤)، وهي العنصر الّذي يبعث الحياة في الجسد المادّي، لأنه نفس الإله المنفوخ فيه. وهو أيْ الجسد، العالم الدنيويّ المتكوّن من النّفس التي هي المبدأ الأنثويّ، ومن الأنا التي هي المبدأ الذكريّ القابع في حضنها، وهذه الأخيرة لا تمثل المادّة الصّلبة وإنّما شخصيّتها، وهي بعبارة أخرى الانعكاس الوهميّ للذّات. وإني لأتحدّث هنا عن محتوى عقليّ ذو طبيعة سائلة، ولأجل هذا فإنّ النّفس

مرتبطة بالماء وهي توجد في المركز بين العالم الباطنيّ والعالم المادّي، وبين صراعات النّفس لا سيما حينما يتعرّضُ الكيان العقلي في ارتباطه بالمبدأ الذكريّ إلى عملية الوحشنة التي تحجب بالكامل الذّاتَ الحقيقيّة في جوهر الإنسان، وهذا ما يفسّرُ ويبرّرُ لغة الحرب والقتال الواردة في القرآن الكريم والتي أشار إليها آنفاً عبد الجبّار فيما يتعلّق بحروب النّفس وطريقة تخليصها من أسرها ووحشنتها وسجنها الدّاخليّ الرّهيب. ولقد حدّد خطابُ الوحي إمكانية الخلاص في التعرّف على التركيبة الحقيقيّة للإنسان ولا غرابة إذا كان محمّد يعرف أنّ هذه التركيبة تقبع في المركز والجوهر الأصيل، بينما يقبع في القشرة الخارجيّة كلّ ماهو مزيفّ، ولذا سمّيت عملية الخلاص هذه بالجهاد الأكبر، والّذي سمّاه رجال الدّين في الديانات الأخرى بمحاربة التنّين أو الأفعى الّتي تبدأ في سنّ الأربعين، وهي السنّ التي أسمّيها نسبة إلى سورة التوبة بسنّ براءة، أيْ العمر الّذي يتبرّأ فيه القلب الكونيّ من شواغل النّفس المرتبطة قبل الأربعين بقوّة النموّ والتّغذيّة، وذلك حتّى يتفرّغ لمسار الانعتاق من شؤون الدّنيا حينما يتحقّق انحسار نشاط الطّاقة الأنثويّة المعبّر عنها في القرآن الكريم بعبارة (فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) (١٥)، أيْ بمعنى فلمّا قضى الجسمُ الّذي يزيد في النموّ وطره من الطّاقة الأنثوية المتمثّلة بالنّفس التي كبّرتهُ وزادت في نموّه تزوّج بها لكي تعينه على جهاده الدّاخليّ في سبيل الخلاص من ربقة الاستعباد الدّنيويّ، وهذه الزّوجة في مقام الأربعين لها اسم آخر لدى أهل الأسرار وهو زينب، أيْ الشّجرة العطرة الحسنة المنظر وهي ذاتها شجرة الحياة والمعرفة التي يأكل منها السّالكُ وهو في طريقه إلى الكمال الرّوحيّ.

وإذ أكشف لكَ عن هذه المعاني الجديدة فإنّه يبدو واضحاً كيف حُرّفتِ المعاني وقُلبت الآيات وتشوّهت الأهدافُ بشكلٍ أدّى إلى مسخِ صورة الدّين الإسلامي في كافّة المجتمعات كما يقول عبد الجبّار الرّفاعي، بحيث أصبح "كلّ ماهو دينيّ مختلطاً بكلّ شيء: بالعلم وبالفلسفة والأدب والفنّ، وبالدّولة والقبيلة والعادات والأعراف بشكل انهار فيه كلّ شيء وماعاد الدّينُ ديناً، ولا العلم علماً، ولا الأدبُ ولا الفنّ أدباً وفنّاً"(١٦). فما الحلّ إذن أمام هذه المعضلة الكبيرة، و"كيف نحوّل الدّين من موتٍ إلى حياة ومن داء إلى دواء، ومن سمّ إلى ترياق، ومن هيروئين إلى فيتامين، ومن ظلام إلى نور، ومن حزن إلى فرح، ومن شقاء إلى سعادة، ومن ضعف إلى قوّة، ومن هدم إلى بناء؟!"، يجيب عبد الجبّار: (لا خلاص إلّا بالخلاص من "تديين الدّنيويّ" وإعادة الدّين إلى حقله الطّبيعيّ، ومن دون ذلك ننهكُ ماهو ديني، ونبدّد ما هو دنيويّ)(١٧).

وإلى كلماته أضيف وأقول، إنّه لا بدّ من شجرة الحياة والحسن والجمال والبهاء زينب بكلّ مقاماتها النّسائيّة، بما فيها مقام عائشة التّاسع الّذي هو أحد أسماء الإلهة إيزيس والتي تعني في معناها الباطنيّ كلّ شيء يعيش ويحيا وينمو في الكيان والّذي لا بدّ للمريد والمريدة أيضاً من ولوجه في التّاسعة أيْ في المقام التّاسع من شجرة الحياة، وهذا هو ردّي على من كان يسأل من مثقفّي الحسرة منذ أزيد من عشرين سنة عن محمّد لمَاذا تزوّج بعائشة، وهي بعد طفلة في التّاسعة من عمرها، وهم لا يعرفون عن حياة السالكين إلى الله شيئا ولا عن شجرة الحسن زينب فيها ولا عن النساء الأربع التي لا بدّ للسالك والسّالكة من الزّواج بهنّ كرمز لعناصر الخلق الأربعة وهي النار والهواء والماء والتّراب، والتي لا يستطيع المريد التوفيقَ بينها

بسهولة فوجب اكتفاؤه بواحدة، أو اثنين أو على الأكثر ثلاثة قبل البدء في رحلة تسلّقه لشجرة المعرفة زينب.

وأمّا لمن يسأل عن الجواري في الإسلام واستعباد النّساء من أين أتى، فأقول إنّ تاريخ الإنسان الأسود في تحريف كلّ شيء عبر غرائزه المتوحّشة تشهد ضدّه على قبح ما ارتكب من جرائم. ففي الوقت الّذي كان فيه نصّ الوحي صريحاً في تمييزه بين النّساء والجواري، وأقول النّساء لأنّ العدد الحقيقيّ الذي يتزوّج به المريد والمريدة أيضاً وهُما في حروبهما الرّوحيّة الباطنيّة مع المبدأ الأنثويّ الذي هو النّفس يصل إلى تسع نساء يضاف إليهنّ أربع أخريات حينما يتمُّ الوصول إلى المقام العاشر من شجرة المعرفة والحكمة، ليصبح المجموع ١٣ زوجة، فافهم قولي وافقه من أين أتت هذه الأعداد النسائيّة التي يتجادل حولها المفسّرون إلى اليوم وباسمها ارتكبت العديد من المجازر والحروب النكاحيّة على أرض الواقع الماديّ الإنسانيّ وفي حياته اليوميّة!

أمّا بالنسبة لسبي الجواري، فإنّ الأمر فيه إشارة إلى الجانب الأنثويّ للقوى المتعلّقة بمقامات شجرة الحسن والحكمة ولكن في الجزء المتعلّق بالنزوات الدّنيوية الطّارئة داخل قلب المريد، وهنّ أقل شأناً من النّساء اللائي هنّ طاقات أنثوية أساسية بينما الجواري طاقات ثانويّة والتي يتوجّب على السّالك سبيها أيْ سلخ جلد الأفعى فيها، ونزعها وتحريرها من الكينونة الذّكريّة التي تحكمها داخل العالم الجوّانيّ للنّفس البشريّة لكلّ إنسان، ولا فرق في هذا بين مسلم أو مسيحيّ أو غيرهما ممّن يعتقد ويدين بديانات أخرى. والكشف اليوم عن هذه المعاني فيه كشف عمّا ألحقه التفسير السّيء للتعاليم المتعلّقة بالمبدأ الأنثوي، والذي أفرد له القرآن الكثير من الآيات وخصّص له سورة

كاملة تحمل عنوان النّساء، من ضرر أدّى إلى خلق أبشع الممارسات التي شهدها التاريخ مثل السّبي الفعليّ للنساء والمتاجرة بهنّ في سوق الرّقيق إلى اليوم، وهو ما أشار له د. عبد الجبّار الرّفاعي بقوله: (الرِّقُّ أقبحُ أشكال نزَعات التسلط وامتهان الإنسان لأخيه الإنسان، وأقسى صور هتك الكرامة البشرية. إنه ظاهرة بشعة مزمنة في الحياة، لم يتورط فيها كائن آخر غير الإنسان. ولم تَصدر قرارات صارمة تُلغي تشريعه حتى القرن التاسع عشر. فهذه القرارات – وإن ربما استطاعت تحريمه والقضاء عليه –، عجزت عن استئصال جذوره ومنابعه المزمنة. فمع أنه اختفى شكلُه القديم، غير أنه واصَل حضورَه بِعُنوانات وأشكال بديلة. خلَق اللهُ الناس متساوين في إنسانيتهم، إذ ليس هناك إنسان كامل الإنسانية، وآخَر إنسانيته ناقصة. أمّا الرقُّ، فهو أقسى أنماط احتقار البشر، لأنه هتكٌ للكرامة. ولا تتحقق إنسانية أية ديانة إلَّا بتبنِّي المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتجسيدِها في مختلف المواقف والأفعال والسلوك، بغضِّ النظر عن الدين والثقافة والجنس والنسب واللون والطبقة. فلا قيمة سامية تعلو على قيمة الكرامة، وهتكُها يُثير الفزع في كيان أيّ كائن بشري، مهْما كان بَلِيدًا أو أبْلَهَ في نظر بعضهم. هتكُ الكرامة يُنتجُ عمليات الثأر العنيفة، والثورات والأشكال المتنوعة للمقاومة. وجميعُها ليست إلَّا مَساعِيَ لاسترداد الكرامة، وإنْ أخطأت مراميها أحيانًا.

الرقُّ غيرُ مستهجَن عند أكثر الناس الذين يمارسونه؛ إذ هناك حاجة نفسية مختبِئة، إلى استرقاق البشر وإخضاعهم لدى كثير من الناس، الذين يتلذذون بالتسلط على غيرهم، مضافة إلى حاجتهم إلى الخدمة والعمل. ذلك سببٌ خفيّ اليوم لاستنساخه في المجتمعات بأقنعةٍ جديدة، مِن أبشعها ظاهرةُ

"الخدم"، المتفشية في مجتمعات التمييز العنصري واحتقار الإنسان المُتْخمة. العبوديةُ تختبئ في الكلمات، وتَشِي كلمةُ "الخدم" بحمولة سالبة، تحطُّ برأيي من كرامة الإنسان الذي كرّمه اللهُ تكوينًا. إنْ كان بعضُهم يلتمس مبررات للرقّ في التاريخ، فإنَّ استئناف الرقّ بأقنعة بديلة في مجتمعات اليوم، لا يمْكن تبريرُه أبدًا. في "العبودية المقنَّعة" نرى شابَّاتٍ وشبابًا يعملون في المنازل، ويتعامل معهم أهلُ المنزل باحتقار وإذلال ومهانة، بخِلاف الكلاب والقطط والطيور التي يهتمون بها في الغالب أكثرَ منهم. فيُسكِنون أولئك الخدم في أماكن غير ملائمة، ويطعمونهم أحيانًا بقايا الطعام، وغالبًا ما يُلبسونهم ثيابًا غيرَ ثيابهم، دون أن يكترث أحد لِمشاعرهم وعواطفهم وحساسياتهم وانفعالاتهم بصِفَتهم بشَرًا. "الخدم" يفكرون ويشعرون مثل كلّ البشر. هؤلاء بشرٌ مُكرَّمون، كرامتُهم هبة من الخالق لهم، كرامتُهم مُكوِّن لهُويَّتهم الوجودية. أكرهَتهم الفاقةُ والحرمان والجوع وفقدان فرص العمل الكريم، على زجّ أنفسهم في هذا النوع من العمل المُزْري الذي يمتهنهم. هؤلاء بشر، ينفعلون، يتألمون، يحزنون، يكرهون، يحبون، يشعرون بالسعادة، وتنزف قلوبُهم أسًى لحظةَ يتعرضون لإهانة أو تنكيل. لكنْ مع ذلك، يتعامل معهم أكثرُ من يستخدمهم، وكأنهم محكومون باكتئاب وحزن أبديّ. هؤلاء بشرٌ، لديهم احتياجات جسدية وروحية وأخلاقية. فيحتاجون إلى الحياة العاطفية والجنسية، كما كلُّ كائنٍ بشري. أيضًا يحتاجون إلى الفرح والحبّ والحنان، ويحتاجون إلى الاعتراف بهم وبمُنجَزهم مهْما كان، ويحتاجون إلى الاحترام والشكر والتكريم. هؤلاء بشرٌ، لديهم حياتهم الباطنية. فالذات البشريّة بطبيعتها باطنية داخلية عميقة، تنطوي على أسرارها، وتَخْصَب وتغتني بمنابع إلهامها وديناميّتها الجوّانية، وتتحقّق على الدوام حين تَشْرع في

وُجودها وتجاربها وحياتها الخاصّة. ولا يمْكن لنا اختراق هذه الحياة واكتشاف غاياتها، إلّا بحدود ما تبوح هي به. يولَد الإنسان بمفرده، ويحيا بمفرده، ويموت بمفرده، ويتألّم بمفرده، ويمرض بمفرده، ويشعر بالخطيئة بمفرده، ويستفيق ضميرُه بمفرده، ويؤمن بمفرده، ويُلحد بمفرده. أيضًا يجتاحه بمفرده: القلق، واليأس، والاغتراب، والضجر، والسأم، والألم، والحزن، والغثيان، وفقدان المعنى، وذبول الروح، وانطفاء القلب، والعدمية، والعبثية، والجنون).(١٨).

كيف النّجاة من كلّ هذه الأهوال التي تسبّبت فيها القراءات المقلوبة لكلمة الوحي وخطابه، وكيف السبيل إلى إعادة البهجة والمسرّة والضوء إلى مشكاة الرّسالات النبويّة وقد سدّ علينا المتشدّقون بالمعرفة كلّ الأبواب؟ لا سبيل إلّا بالعودة إلى المعين الصّافي، أي إلى محبّة الله بعيداً عن قساوة وتعصّب كلّ أشكال التديّن المتزمّت الّذي ينافي فطرة الإيمان لدى كلّ إنسان، لأنّ "اللّحظة التي يمتلكُ فيها الإيمان قلبك تصير أنت الأمن والسكينة. أمنكَ هو إيمانكَ، وإيمانك هو أمنكَ، إنه إيمان أنطولوجيّ متوحّد بكينونتكَ والعلاقة فيه باللّه أفقيّة لا عموديّة، علاقة جوهرها الحبّ والحريّة، لا تتضمّن استرقاقاً، ولا قهراً ولا انتهاكاً لكرامتكَ"(١٩).

بهذه الكلمات أختمُ سفري العرفانيّ ووقفاته في حضرة عبد الجبّار الرّفاعيّ، أطفئُ قارئي الإلكتروني، أو مكتبتي الرقميّة المتنقّلة، أمشي بخطوات ثابتة، وأتوجّه نحو صبيّ الحكمة الأسمر في الطريق المؤدّي إلى باب الحديقة العرفانيّة الكبير، أسلّم عليه، ثم أستلمُ منه عصاه، التي بها لا شكَّ ستبدأ أسفار جديدة أخرى، ووقفات مع أهل الله من شتّى الدّيانات والاعتقادات، راجية من الله عزّت وجلّت قدرته أن يمدّني بمزيد من التأييد، ويفتح لي

وعليّ من بركاته وفيوضاته فتحاً مبيناً لا يأتيه الباطلُ من بين يديْه ولا من خلفه.

**الهوامش:**

**١) وأعني بها ثلاثية كتب الرفاعي عن الدين، الّتي صدرتْ في طبعات ثانية وثالثة ما بيْن عامَيْ ٢٠١٨-٢٠١٩ عن مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، وهيَ على التّوالي: (الدّين والنّزعة الإنسانيّة، ط٣)، و(الدّين والظّمأ الأنطولوجيّ، ط٣)، ثمّ (الدّين والاغتراب الميتافيزيقيّ، ط٢).**

**٢) د. عبد الجبّار الرّفاعيّ، الدّين والاغتراب الميتافيزيقيّ، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ط٢، ص ٨، ٢٠١٩.**

**٣) د. عبد الجبّار الرّفاعيّ، الدّين والظّمأ الأنطولوجيّ، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ط٣، ٢٠١٨، ص ٢٧.**

**٤) انظر في الملحق صوراً توثّقُ زيارة أسماء لهذه الحديقة العجيبة.**

**٥) د. عبد الجبّار الرّفاعيّ، الدّين والاغتراب الميتافيزيقيّ، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ط ٢، ٢٠١٩، صص، ٣٧-٣٩.**

**٦) المصدر نفسه صص ٢٤-٢٥.**

**٧) د. عبد الجبّار الرّفاعي، الإيمان والتجربة الدّينيّة، "موسوعة فلسفة الدّين ٢"، ط١، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ٢٠١٥، ص١٣.**

**٨) د. عبد الجبّار الرّفاعيّ، الدّين والنّزعة الإنسانيّة، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ط٣، ٢٠١٨، ص ٥٠.**

**٩) د. عبد الجبّار الرّفاعيّ، الدّين والظّمأ الأنطولوجيّ، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ط٣، ٢٠١٨، ص ٥٣.**

**١٠) المصدر نفسه، ص ٤٦.**

**١١) سورة الحديد: الآية ٠٣.**

١٢) وصايا عرفانيّة للإمام الخمينيّ، إعداد السّيّد عبّاس نور الدّين، مركز بقيّة الله الأعظم، ط٢، بيروت، ٢٠٠١، صص ١٨-١٩.
١٣) عبد الحليم عوض الحلّي، ظهور الحقائق وانقلابها في عالم المُلكِ والملكوت، ط١، مؤسسة الطّبع والنّشر التّابعة للأستانة الرّضويّة المقدّسة، ٢٠١٣، ص٥٢.
١٤) د. أسماء غريب، قصيدة (عينُكَ)، ضمن ديوان مشكاة أخناتون، ط١، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٨، ص ١٠٩.
١٥) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.
١٦) د. عبد الجبّار الرّفاعيّ، الدّين والظّمأ الأنطولوجيّ، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ط٣، ٢٠١٨، ص ١٤٣.
١٧) المصدر نفسه، ص ١٤٣.
١٨) د. عبد الجبّار الرّفاعيّ، الاستعباد والعبوديّة المقنّعة، من مقالة منشورة في موقع تعدّدية بتاريخ (١٨ /٠٦/ ٢٠٢٠).
١٩) د. عبد الجبّار الرّفاعي، الإيمان والتجربة الدّينيّة، "موسوعة فلسفة الدّين ٢"، ط١، مركز دراسات فلسفة الدّين ببغداد، ودار التنوير ببيروت، ٢٠١٥، ص٢٣.

## ملحق الصّور
## أسماء غريب في فيلّا جوليا



مع الموسيقيّ الإيطاليّ جواكّينو روسّيني



السّاعة الاثني عشريّة وقبّة جوليا



تحت قبّة جوليا وإشاراتها الأبراجيّة




نافورة عبقريّ بلرم وشفيعُها



## ختم السّفر بلقاء إيزوتيريّ بين أسماء وطفل الحكمة الأسمر

# (VI)
# من الإنسانِ الآليّ إلى الإنسان العاليّ
# في عرفانيّات عبدالجبّار الرّفاعي

حينما انشغلتُ لأزيد من خمس وعشرين سنة بـ "الفلسفة"، لمْ أَكُ في الحقيقة أبحثُ فيها عن طريقة لأفهَم بها الكونَ والوجود، ولا عن وسيلة تُمكّنُني من الغوصِ عميقاً في غيابات جُبّي، أو مِنَ الولوج في دهاليز نفسي وإنّما كنتُ أحاولُ فقط أن أجيبَ عن أسئلة بسيطة جدّاً من قبيل؛ ما الفلسفة، ولماذا مرافقة الفلاسفة؟ وما سرّ هذا الاهتمام الّذي أوليه لهُم؟! أنا لا أنكرُ أنّ الفلاسفة أصدقائي الأحقّاء، ولنْ أقول إنّني لمْ أقرأ للعديد منهم، بلى لقد تعرّفتُ على المئات منهم سواء بين جدران فصول التعليم الثانويّ، أو حول موائد المكتبات ورفوفها، أو من خلال قراءاتي المنزليّة العدنيّة داخل المغرب الحبيب أو خارجه، ووحدها فقط هذه القراءات العصاميّة منْ فتحتْ لي أبواب الفلسفة الحقّة على مصراعيها، لا سيما وأنّ دروس الفصول المدرسيّة والجامعيّة الأولى لم تكن أبداً كافية لتطفأ لهيب عطشي للمعرفة، والنتيجة كانت أنّني فهمتُ باكراً أنّه ثمّة فرقٌ كبير بين الفلسفة التي تدرّسها المؤسساتُ التعليميّة، وبين الفلسفة التي تلقّنها إيّاكَ الحياة خارج الأسوار الرّسميّة، وفهمتُ أيضاً أنّ الفيلسوف الحقّ ليس بالضرورة هو منْ يُدَرّسُ الفلسفة، فالأوّلُ حكيم والثاني غالباً ما يكون متفلسفاً لا غير، والحكيم هو من يعلمُ أنّ الفلسفة هي حبّ الحكمة، بينما التّفلسفُ ماهو سوى طريقةٍ روتينيّة جدّاً لجمع المعلومات وتكديسها داخل العقل والتنظير من خلالها

للعديد من القضايا دون تحقيق الوعي السّليم بها. وبناء على هذا تعلّمتُ أنّ الحكمة هي مرادفة لإزهار الوعي وانتشار عطر العقل الأعلى عبر التحليق في الماورائيات حتّى إدراك مستوى اللّاتفكير، أو اللّاعقل، ولك أن تسمّيه ما تريد، ولتعلم أنّني هنا أقصد الوصول إلى ما يسمّى بالإيمان الأعلى، أيْ بلوغ سدرة المنتهى، هذه هي الفلسفة يا صديقي، وليستْ تلك التي أصبحت مجرّد حرفة لتنظير، وتحديد التقنيات والأفكار التي لا تحلّ ولا تغيّرُ أيّ شيء بداخلكَ، وإنّما أنت تبقى كما أنتَ دون أن تعلمَ أنّ الرّجل المتفلسفَ هو أكثر النّاس وهماً في العالم لأنّه يعتقد أنّه يعرفُ كلّ شيئ في حين هو لا يعرف شيئاً على الإطلاق لأنّ فلسفته لم توصله إلى المقامِ المحمود. وأنتَ دون أن تعلمَ أيضاً أنّك حينما تُراكمُ المعرفة، فإنّها تصبح جزءاً من ذاكرتِكَ، فلا تتفاعلُ بها مع أيّ شيء. ولا شيء من المعلومات التي راكمتها يلامسُ قلبكَ أو ذاتكَ، وعليه فإنّ المعرفة التي لا تفعل فعل الكيمياء بداخلك هي أكثر خطورة من الجهل نفسه. عليك أن تدرك هذا جيّداً، وعليكَ أيضاً أن تعلم أنّ المعرفة الحقّة تتجلّى عبر الوصول إلى مستويات الكينونة العالية، فالأمر لا يتعلّقُ بمعرفة قصوى بقدر ما هو مرتبط بجوهر أعلى، والطريقة الحقّة هي أن تكونَ أكثرَ، لا أن تعرفَ أكثر. أقول هذا وقد حضر الآن بين عينيّ طيفُ الشّاعرة الأمريكية جيرترود شتاين، فتذكّرتُها حينما سألت الحاضرين حولها وهي في لحظات احتضارها الأخيرة فوق فراش الموت قائلة: "ما الجوابُ إذن؟"، قال أحد الأصدقاء مستغرباً الأمر: "إذا كنّا لا نعرفُ السّؤال، فكيف بوسعنا أن نُعطيكِ الجواب؟"، فتحت جيرترود عينيها للمرّة الأخيرة وعقّبت: "جيّد جدّاً، في هذه الحالة ماهو السّؤال إذن؟" ثمّ ماتت!

نهاية عجيبة، أليسَ كذلك أيّها القارئ العزيز؟ من يدري لربّما تكون أنتَ أيضاً مثل جيرترود ومثل العديد من النّاس في عجلةٍ من أمركَ وتُريد أن تعرف ما الجواب قبل أن تعرفَ ما السّؤال، وأنا أقول لكَ إنّه لا يوجد سؤال ولا جوابٌ حقّاً وحقيقةً، ولم أكُ لأقرأ كتب الفلسفة وأصَاحبَ الفلاسفة لأجد جواباً عن سؤال ما، لأنّه لا يوجد أحدٌ يعرفُ السؤال ولا الجواب، والكونُ الّذي هو مدرستي الإلهيّة علّمني أنّ ما يوجد حالياً هو فقط طريقة للعيش في فوضى العقل الّذي يضجُّ بالأسئلة وعشرات الملايين من الأجوبة التي تتناسل باستمرار أبديّ، أقول هذا وقد سطع في سمائي الفكريّة اسم جديد لعارف لم أكن أعرف عنه شيئاً مسبقاً، وأعني به د. عبد الجبّار الرّفاعي، قرأتُ حديثاً بعض كتبه سواء تلك ذات الطّابع الحوزويّ أو تلك التي انفتحت على الفكر والفلسفة الغربيّيْن، واطّلعتُ على بعض الأعداد من مجلّة "قضايا إسلاميّة معاصرة"، فخلصتُ إلى أنّ هذا الرّجل قد مرّ في حياته الفكريّة بمخاضات عدّة، وتحوّلات ذات قيمة معرفيّة هائلة من حيثُ أنّهُ استطاع من خلال دراسته للمعارف والعلوم الإسلامية أن يلاحظ أنّ بعض هذه العلوم لا سيما الحوزويّة منها بحاجة إلى غربلة عميقة مع إعادة لبنائها وتحديثها ثمّ تخريجها بأسلوب ولغة جديدين ينسجمان مع تحوّلات العصر سائراً في هذا على خطى المجدّدين الأوائل من قبيل الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والشيخ محمد رضا المظفّر، وكذا السّيد هبة الدين الشهرستاني، والإمام الشهيد محمد باقر الصدر. ولعلّه من باب التّجديد هذا وُلدت مجلّة: " قضايا إسلامية"، ثم "قضايا إسلامية معاصرة"، والتي بها وبما طرحته من مواضيع تجديديّة وقضايا رائدة تعمّقت أكثر فأكثر تجربتُه ومسيرته الفكريّة، إلى أن بلغت الذّروة في كتابيْه (إنقاذ النّزعة الإنسانيّة في الدّين)، و(الدّين والظّمأ الأنطلوجي)، وهما الإصداران اللّذان وجدتُ فيهما عبد الجبّار

الرّفاعي وقد تجاوز مرحلة الفلسفة إلى ما بعد الفلسفة، أو ما أسمّيها بالمرحلة العرفانيّة التي لا تتحقّقُ إلّا بعد أن يتخلّص "الفيلسوف" من فوضى العقل، ليدخل إلى نظام الوعي الأعلى، أو إلى ما رمز إليه ابن عربيّ في ديوانه (ترجمان الأشواق) بوجه المحبوبة الأنثى المتألّهة "نظام". وهو النّظام الجديد الّذي به تغيّرت كتابات د. عبد الجبّار الرّفاعي لتصبح مغموسة في مدادِ المحبّة، ولا أقول الحُبّ، إذ أنّ هناك فرق كبير بينهما، لأنّ الحبّ يقتضي الوقوع، والمحبّة تقتضي الصعود، وهذا ما يفسّرُ كيف أنّ معظم النّاس حينما يرغبون في التعبير عن حالة الحبّ التي يمرّون بها يقولون: "وقعتُ في الحبّ"، أمّا محبّ الحكمة أو العارف فيقول: "صعدتُ بالمحبّة"، وعليه فإنّ من يقع في الحبّ نائم حالم، ومن يصعد بالمحبّة عاشق مستيقظ بقلب واعٍ وعيون متّقدة. ولهذا فإنّي أعتقدُ أنّه لو كان د. عبد الجبّار حاضراً لحظات احتضار الشّاعرة جيرترود لقال لها وقد بلغ هذا المستوى العظيم من الحكمة التي بها حلّق إلى مرحلة ما بعد الفلسفة: "هذا ليس بالوقت المناسب لتشغلي بالك بالسّؤال والجواب، فلا وجود لهما أصلاً، ولتتذكّري أنّ الوجود صامتٌ كاملٌ مطلقٌ كما خلقه الوعي الأكبر، والحياة ليست فصلاً للفلسفة، أغمضي فقط عينيكِ بدون سؤال ولا جواب، تحوّلي الآن وموتي بصمتٍ، برحمة، بسلام ومحبّة، وعشق ووعي كبيريْن"!

وحده من اكتوى بأوار استبداد المعارف الرّسميّة وترويض المؤسسات التربوية للفكر على الطّاعة العمياء، يستطيع أن يُشَكّلَ ويخلقَ هذا النّوع الجديد من الفكر وهو يعلم بأنّه بقدر ما يكون الفردُ واعياً يكون حيّاً، لأنّ الوعيَ هو الفرق بين الحياة والموت، والإنسان ليس حيّاً لأنّه يتنفّس، وإنّما أنتَ حيّ أيها القارئ العزيز حينما تكون يقظاً، ولا أحد في هذا الوجود باستثناء اليقظين حيّ، الباقون هُم جثث تمشي، تتكلّمُ وتصنع الأشياء

وتعيش، إنّهم الإنسانُ الآليُّ الجديد، وعبد الجبّار الرّفاعي بكتاباته الجديدة يدعوكَ إلى التحوّل من الإنسان الآليّ إلى الإنسان العاليّ بوعيه ويقظته، أقول هذا وقد اكتشفتُ أنّنا لسنا بعدُ إنساناً، نحن آلة وإن كانت هذه الحقيقة تزعج الكثيرين، لكن راقب نفسك ولو لبضع دقائق وستدرك للعمق أنّكَ تتصرّفُ كالآلة، إنّك آلة رائعة حقّاً كما قال العالمان؛ الروسي بافلوف، والأمريكي سكينر، وإني لأغفر لهما قولهما هذا لأنّهما لم يصادفا لليوم إنساناً كمحمّد، أو عيسى، أو حكيماً متصوّفاً عارفاً بالله كجلال الدين الرّومي، وابن عربيّ والحلّاج، ولكنّهما صادفا الملايين من النّاس الّذين يشبهونك. لقد درس سكينر الإنسان والجرذان وخلص إلى أنّه لا يوجد فرق بينهما، الجرذان مخلوقات بسيطة والإنسان كائن أكثر تعقيداً، وعليه فالجرذان آلة بسيطة، في حين الإنسان آلة معقّدة لكنها رائعة جدّاً، ولهذا السّبب يدرس علماء النّفس الجرذان ويعمّمون نتائج دراساتهم على الإنسان، وهم على حقٍّ فيما يذهبون إليه إلى حدٍّ ما، فأين لسكينر أن يجد رجلاً متيقّظا واحداً، أيْ حكيما وعارفاً بالله في أمريكا كلّها، وكلّ ما يراه في الإنسان هو صورة مكبّرة عن الجرذان، مادام هذا الإنسان في حالة نوم عميقٍ. وهي الفكرة التي ذهب إليها أيضا سيغموند فرويد حينما قال إنّ الإنسان محكوم بحالة اللّاوعي التي تسيطر عليه بشكل كامل، وإنّ العقل الواعي عند الإنسان لا يمثّل سوى ١٠ % من مجمل العقل، وقد بلغ تلميذه يونغ شأناً عظيماً حينما اكتشف اللّاوعي الجماعيّ، وإني لأنتظرُ أن يظهر عالم آخر يكتشف شيئاً اسمه اللّاوعي الكونيّ، وما دام موجوداً فهذا يعني أنّ هناك أيضا شيء اسمه الوعي الكونيّ وهو الّذي تحدّث عنه مراراً وتكراراً العرفاء والأنبياء، ألم تسمع الحلّاج حينما قال: أنا الحقّ؟ إنه لم يكن يقصد أنّه هو الله بالمفهوم الغوغائيّ لدى عامة النّاس، وإنما كان يقصد إنه هو

العقل الواعي الأعلى الكونيّ، وهو نوع الوعي الذي تحدّث عنه سري أوروبيندو بحيث جعلنا ندركُ أنّ الإنسان على الصّعيد الفكريّ هو أكبر حجماً بكثير من الصّورة السّلبية التي ترسّخت عنه طيلة عمره الوجودي فوق هذا الكوكب. وعبد الجبار الرّفاعي بكتاباته الجديدة يسعى هو أيضاً إلى إحياء هذا الوعي الأبديّ الّذي لا يموت، حتّى يصبح الإنسان قادراً على أن يراقب كلّ ما يقوم به، فيخرج من الحالة الآليّة إلى الوعي العاليّ، لأنّ من يراقبُ يستيقظُ، ومن يستيقظُ يحيا، ومن يحيا يُحبُّ، ومن يُحبّ يجد الله، أو سمّه إذا شئتَ الوعي الكونيّ الأعلى، هذه هي القمّة التي تستحقُّ أيّها الإنسان، فإذا لم تبلغها فأنت المسؤول، ولا أحد سواك، وتذكّر أنّه كما قال الرّفاعيّ في إحدى مقالاته الحديثة وهو يتحدّث عن الحبّ بمعنى المحبّة: "عندما أنظر لأعماقِ النفس البشرية بمجهرِ علماء النفس، لا أرى في هذا الكائن ما يغويني بمحبته، وعندما أنظر لروح الإنسان ببصيرة العرفاء والمتصوفة أرى شيئًا من النور يغويني بمحبته. أدركتُ أن الطبيعة البشرية ملتقى الأضداد، فعملتُ منذ سنواتٍ طويلةٍ على ترويضِ نفسي على الحُبّ، كان هذا الترويضُ شديدًا شاقًا منهِكًا، ولم يكن سهلًا أبدًا. الترويضُ على الحُبّ هو الأشق، إلا أنه كان ومازال يطهرني من سموم الكراهية، وينجيني من أكثر شرور الأعداء... من يعجز عن إنتاجِ الحُبّ يعجزُ عن إنتاجِ معنىً للحياةِ، الحُبُّ أهمُّ منبعٍ لإنتاج المعنى في الحياة، مادام هناك إنسانٌ فإن حاجتَه لمعنىً لحياته تفوق كلَّ حاجة، الإنسانُ لا يستطيع العيشَ بسلامة نفسية من دون معنى لحياته، ولا معنى في الحياة أثرى وأجمل من الحبّ"!.

# (٧)
# حولَ مائدة البَصْرِيَّيْن
# د.كريم حميد الدّراجي ومحمود البريكان

في زمن الدّاء والوباء، زمنِ كورونا وما تبعهُ من بلاء، حُكِمَ على الإنسانيّة جمعاء بالسّجنِ العالميّ، فالكلُّ في البيوت؛ الفقراء قبل الأغنياء، والأطفال قبل الشّيوخ، والشّباب قبل الكهول وسِجْن عن سجنٍ من بيتٍ لبيتٍ يختلفُ، والكلّ في عناء وبكاءٍ وشقاءٍ، أشرار القوم قبل الأتقياء، ولكن ماذا عن رجال العِلم في كلّ هذا وماذا عن الفقهاء، بل ماذا عن الكُتّاب، الأدباء منهم والشّعراء؟! رجالُ العلم، فيهم من هو منهمك في البحث عن تلقيح يُحاربُ به الوباء، وفيهم من هُوَ مُنشغلٌ بأخبار البورصات والأبناك والنّفط والدولار، وفيهم من هو في حيرة من أمره كيف سيُضْمَن للإنسان ما يكفيه من الغذاء في أيام المحنة والخوف والترقّب، وأمّا الفقهاء فهُم منشغلون كما العادة بالفتاوى عن الحجر الصحّي، وعن الصلاة في المساجد وصيام شهر رمضان وما إليه من أمور تصبُّ في الاتجاه نفسه. لكن ماذا عن الأدباء، كيف واجهوا الفيروس، وكيف تفاعلوا مع أيّام السّجن والعزلة الذّاتية، البعضُ منهم هلّل لواقعة الحجر الصحيّ الجديدة القديمة في تاريخ الإنسانيّة، واعتبرها فترة للتفرّغ للكتابة والعطاء أكثر فأكثر، والغالبية العظمى في ضنكٍ وهَمّ وغمّ، فالكتابة يا سادتي والإبداع عامّة لم يكونا ليومٍ واحد مصدر رزق للعديد من هؤلاء المصابين بجنون الحرف، والكلّ يعلمُ أنّ فئة الأدباء والكتّاب لا سيما في العالم العربيّ فئة مهمّشة جدّاً، تعيش في الظلّ وتقاوم الفقرَ وتشكو العوزَ والحاجة، ومعظمهم في عفافٍ وكفاف يبحثون عن

مصدر آخر للرّزق علّهم يستطيعون به الاستمرار في الحياة، والحال أنّ الحجرَ الصحيّ اليوم قد طال الجميعَ، فلا أحد يسأل عنهم، وأنا أعني منهم هُنا الأدباء الأحقّاء، أصحاب الوعي المتوهّج، ولا ألتفتُ أبداً إلى المهرّجين من الكُتّاب والشّعراء الّذين يملؤون السّاحات، ويتجمّعون كالذّباب حول موائد أهل الجاه والسلطة والاتحادات الأدبيّة الميؤوس منها يلعقون الأحذية والأطباق ويقبلون بالفتات من هذا وذاك، دون أن ينتبه أحد كيف أنّ هذا الفيروس صاحب التّاج، قد فضح الجميع، ووضعَ كلّ شخصٍ وكلّ كيان في مكانه الحقّ، والجميل في كلّ هذا أنّه بينما أنا منهمكة في تأمّلاتي هذه إذا بي أتذكّرُ بعض النصوص الإيطالية والفرنسيّة التي كنتُ قد ترجمتُها العام الماضي (٢٠١٩) ونُشرتْ في العراق عن دار الفرات والثقافة والإعلام ضمن الجزء السادس من موسوعتي (ترجمتُ لكَ / ٦٠ شاعراً من العالم)، وأعني بها نصّ (أفكّرُ فيكَ ويتغيّرُ العالم) للشّاعر الغنائيّ الإيطاليّ لويدجي دي كريشينزو، وقد أدّاها بصوته الدّافئ والعميق المغنّي الإيطاليّ أدريانو تشيلينتانو، وكذا نصّ (بيت على شاطئ البحر) لِلُوشو دالّا والّذي أدّته – في ذكرى رحيله– بصوتها المتميّز المغنّية الشّاعرة والمثقفّة الملتزمة الجميلة فيوريلّا مانّويا، وكذا نصّ الشّاعر الفرنسيّ جاك بريفير (باربارا)، وهي كلّها نصوص تشترك فيما بينها بمعالجتها لقضية انخساف الإنسان، وتقهقر وعيه الذّاتي، وغرقه في طينه الأبديّ، وبُعده عن التنوّر الرّوحيّ بكلّ أبعاده وأشكاله ومعانيه، فكان أن وصف دي كريشينزو الإنسانَ بالذّئب الجائع الّذي يشعرُ بالضياع في ظلام الأرض وبداخله خزان كبير ممتلئ بالغضب والألم وهو يبحث في محنته هذه عن وجه مضيء يبتسم له ويمدُّ يدَ المَحبّة والعشق لينتشله من الوحل، ويشاء الشّاعر في معانيه المستترة ألّا تكون هذه

اليد سوى يدِ خالقه، الّذي يستجيب لندائه وصراخه المرير قائلاً: ((أنا هنا، أنتظركَ / خلفَ الظّلامِ ستراني / سأعرفُ كيفَ أدافعُ عنكَ وأحميكَ / ولن أتعبَ من هذا أبداً / ماءً في الصّحراء سأجدُكَ / يكفي أن تنامَ / وسترى كيف ستشعرُ بلمساتي)). وعلى النّهج نفسه سار الشّاعر جاك بريفير وهو يحاول أن يصف مرارة الحروب وما تفعله بمصائر النّاس وأقدارهم عبر استحضاره لشخصية أنثى عاشقة التقاها مصادفة في زقاق سيام وكان اسمها باربارا، فالحرب والألم والغضب والغرق في الوحل كلّ هذه جرائم ارتكبها الإنسان في حقّ نفسه فعجّلتْ بتضخّم شعوره بالغربة في عالمه وبالسّجن في حياته اليوميّة، وهو المفهوم الّذي عالجه الشاعر الغنائيّ الرّاحل لوشو دالّا حينما كان يتحدّث في نصّه عن الرّجل الّذي عشق في زنزانته امرأة كان يراها في شرفتها من كوّة السّجن، فعاش يُمنّي نفسه بلقائها إلى أن مرّت السّنون طويلة عريضة وصعدت روحُه إلى بارئها وهو قابع في سجنه لم يخرج منه ولم يبق له سوى ذكريات وأحلام عن امرأة لم يلتقها أبدا خارج القضبان. وهو النصّ الّذي اطّلع عليه في صفحتي الأديب البصريّ د. كريم حميد الدرّاجي فتذكّرَ على إثره نصّاً آخر هو للشّاعر البصريّ الرّاحل محمود البريكان وهو بعنوان (أغنية حبّ من معقل المنسيين) فأشار عليّ به، واطّلعتُ عليه فعلاً، فوجدتُه في غاية العمق والرقّة والسّحر والعذوبة، وحضر أمامي للتوّ صديقي في العزلة الكونيّة والحروفيّة محمود البريكان، فبدأتُ أنظر إليه وإلى نظّاراته السّود وغمّازة ذقنه، وإلى كلّ إشارة وتفصيل في وجهه، فتذكّرتُ فجأةً كلّ شيءٍ عنهُ؛ طفولته، ووالده تاجر القماش، وموقفه من شعراء الحسرة والبؤس الأخلاقيّ، ووجدتني هكذا أغوص فيه أكثر فأكثر إلى أن ظهر لي كيف أنّ بصيرته كانت مفتوحة على برازخ

الموت والأشباح والأرواح، وكيف أنّه كان مُطّلعاً بعين القلب على السّجن الإنسانيّ الكبير، بل كيف أنّه كان غائصاً إلى عنقه في تجلّيات الإنسان الأوّل وزمن البداءة والبداوة والبكارة الأولى، وكيف أنّه مثلي ومثل دي كريشينزو، وجاك بريفير، ولوشو دالّا يتساءل لليوم عن السبب الّذي عجّلَ بسقوط الإنسان في هذه الهاوية لدرجة أنه حكم على نفسه بسجن أبديّ مؤبّد، لا سبيل للخروج منه، ولعلّ قصيدته (البدوي الّذي لم ير وجهه أحد) أكبر مثال ودليل على ما صرّحتُ به الآن والتي يقول فيها:

((أنا البدوي المحمّل بالأوبئة
بذكرى الجنان التي اندثرت
والبراري التي دفنتها الرياح
بصوت الينابيع في الأودية
ولون البروق على صخرة اللانهاية
أنا البدوي الذي نسختته التجارب
واستعبدت روحه المعرفة
وشلّت يديه الأعنّة
واختبرت صهوات الجياد إرادته
في الرحيل الطويل.
حفظتُ أغاني الزوابع عبر الأفق
وكنت امرأ القيس في التيه،
والمتنبي على الطرق النائية
وفي عزلة الروح كنت المعري رهين السجون الثلاثة،
وكنت دليل القوافل عبر المفاوز

وكنت الذي يوقد النار للطارقين
وكنت أنا الضيف والفارس المتوحد يأتي المضارب
محتجباً بلثام الغموض
وكنت أنا الزائر الهادئ المنزوي في المجالس
سمعت كلام النبي
وآمنت.. لكن رأيت الدماء التي انفجرت
وحروب السلالات
والقوة العارية تمارس لعبتها وتُغيّر ألوان راياتها
أنا الشاهد الأبدي
على الموت تسقط ذاكرتي في الظلام.
أقمت على صخرة الروح مملكتي
وفتحت حدود المقادير يوماً
فمن أين دبّ البوارُ إليّ؟
وفي أي مرحلة في الطريق
بدأت ضلالي؟
تلاشيت بين المقاصير
اعتصرتني المخادع
واستعبدتْ روحي الطيّبات
إلى أن تفتّت لحمي،
نسيت صهيل جوادي
ولم يكن السيف رهن يدي عندما اقتحم الآخرون
مداخل حصني الأخير

دخلت عصوراً من الخوف
بايعت في حضرة السيف والنطع
خضت حروب سواي
وما عدت أذكر مغزى حروبي
رأيت كلاب الملوك
تطاردني في المنام
رأيت الرجال
وهم يخدمون كلاب السلاطين.. أو يُضحِكون
الطواشيةَ المتخمين
وقوفاً وراء الموائد.
وكالببغاء التي هرمت
كنت أملك هذا اللسان ولا أتذكر شيئاً
.....
.....
تخاطبني الريح
أفتح عيني،
هل كان ذلك حلماً بعمق الزمان؟
وهل أحلم الآن؟
ها أنا في عالم يتفجّر حولي بايقاعه المتوحش
طاحونة بقوى الظلمات تدور بأسرع مما أفكر
عقول وراء المكاتب تبدع هندسة الموت
للمدن اللاهية.

صواريخ منصوبة باتجاه النجوم
جيوش تخوض حروباً خفية))

وأقول خلفه، أنت وأنا يا محمود رأينا معاً هذا الإنسان، إنّه يصرخ بداخلنا، وعينُ الله فيه ترى كلّ شيء، وتنصتُ وتشهد على كلّ شيء، كيف كان السّقوط وكيف ظهرت الحروب وغزت الأمراض والأوبئة هذه الأرض، وكيف أنّ الجميع الآن في سجن كبير: سجن الكوكب، وسجنُ الجسد، وسجنُ الرّوح وكيف أنهم يبحثون خلف القضبان عن سلواك القديمة الجديدة، يحلمون بها ويعطونها اسم الحريّة التي يتوقون لها جميعاً، فهل سيتحقّقُ الحلم، أم أنّه سيبقى رهين جدران السجون كما حدث لذاك الشّيخ الإيطاليّ الذي كان يحلم بسلوى أخرى والتي هي في الحقيقة الرّوح العذراء التي يسعى الجميع لمعانقتها، والاغتسال بنورها علّ الإنسان الّذي بداخلهم يفيق من سباته العميق ويقهر الدّوار أو كما كنتَ تقول أنتَ يا أخي محمود بلسان هذا الإنسان:

((وأبحث ثانية عن مكاني واسمي ومسقط رأسي
وما ترك الدهر لي من سلالة أهلي
عسى أن يتم التعرف يوماً
أحس وراء صلابة جلدي
وراء قناعي القديم
وراء برود عظامي
أحس اختلاجة روح خفي
بصيص براءة
وبقيا من القوة الغاربة

ونازعة تُشبه البعث.

هذا الرميم

متى يتحرك؟

هذه العروق

متى تتدفق بالدم؟

هذي اليد الذابلة

متى تتحرر من موتها

متى يا إلهي؟

متى؟))

وإذ تسأل متى تتحقّق الحريّة وأنت الذّي لم تدخل سجناً أرضياً قطّ، وإنّما خبرتَ سجون الرّوح والمعنى، أقلْ لكَ إنّ زمن الانعتاق قريب جدّاً جدّاً لمن يريدهُ ولمن يبحثُ عنهُ، إنّه في رأس ذاك الطّفل الجميل، السّرّ الّذي لا يحاكمُ البشرَ، ويهرع للشمس، ويشتاق للقمر، إنّه في رأسكَ ورأسي ورأس الدكتور كريم ابن بصرتكَ الّذي ذكّرني بكَ، وهو يقول في نصّ له:

((عالم الإنسان

مازال يبتكر الغباء؛

منذ الزمن البعيد

يزرع الصخور

في حدقات الزهور.

عندما تموت الألوان،

يتوقّف الغناء

يحلّ الظلام

...

نقطة تموت

في العالم المجهول،

أنهى وجوده الإنسان!!

...

...

بعد الزمن المجهول

ربّما إنسان يعود .))!

# (VI)
# المُدُنُ العارفةُ باللّهِ في قصائد د. كريم حميد الدّرّاجي

هل تساءلتَ يوماً كيف ينظُرُ العارفُ باللّه إلى المكان والزّمان، وبأيّ جسدٍ فيهما يُقيمُ، أبِالأثيريّ، أم بِالطّينيّ، أمْ بهما معاً؟! وهل يرى الأمكنةً قبراً وسجناً أمْ فردوساً مفتوحاً على الأبديّة، يتحرّكُ فيه بسلطان "كلّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربّكَ ذو الجلال والإكرام"؟ كثيرة هي الأسئلة التي تطرقُ باب فكري وأنا في حضرة القصيدة المكانيّة لدى الشّاعر العراقيّ د. كريم حميد الدّرّاجيّ، وأسمّيها بالمكانيّة، لأنّني رأيتُ الشّاعرَ يتحرّكُ فيها من مكانٍ إلى آخر، ومن فضاءٍ إلى فضاء، وهو في حركته هذه، يؤطّرُ المكان جغرافيّاً وتاريخيّاً، فيُصبحُ بين يديه له سماتُ ما اتّفقَ أهل التأريخ على تسميته بالمدينة. والمدينة عند د. كريم، ليستْ كباقي المدن المتعارف عليها وإنّما هي تلك الّتي تنسترُ وتتزمّلُ برؤاه الدّاخليّة الحميميّة، فتصبحُ أمام عينيه مدينةً عارفة بالله، وكلّ ما فيها يتحرّكُ بحركة الخالق بداخلها، وهي الحركة التي تكون في كلّ الاتجاهات ولا يحكمها زمن معيّن لأنّ الزّمن الرّئيس فيها هو زمن الشّاعر الدّاخليّ، ولأجل هذا يُصبح للمدينة عنده خصائص وميزات معيّنة، تجعل منها مكاناً لا يتشكّلُ من تلقاء ذاته وإنّما يُشكّلُ تفاصيلَه ويؤثثُها الإنسانُ نفسه، لذا فمنَ الطّبيعيّ أن تجدَ عين الشّاعر كريم تلتقطُ التفاصيل الدّقيقة والصّغيرةِ لكلّ مدينة يحلُّ فيها زائراً أو مقيماً كما هو الشّأنُ في هذه الأبيات التي يقولُ فيها:

((العربةُ من الجذوع

وشيخٌ شاحبٌ
متقاطعٌ بينَ الضلوعْ،
والحصانُ الثّملُ
يسائلُ المارةَ و الطريقْ ؟!

الشيخُ سارحٌ..
في ذاكرة الخرفِ،
يئنُّ كطفلٍ حميمْ.
لا كسورْ،
في أطرافهِ الجامدةْ،
غير حزٍّ ضلعٍ أليم.

والحصانُ الثملُ
بانتظار اللحظةِ
من غيرِ حراكٍ
رافلٌ بالدعةِ.

ويَداي في رعدة الصقيعِ
تجمدانْ
باندفاعٍ وحماسٍ تدفآنْ.

أحسُّ جهشةً تئنُّ

في العراءِ الأخضر الداكن الثقيلْ،
لستُ أخافُ غيرَ أن يموتْ)). (من قصيدة ((الحصانُ الثّمل)))

الشّاعر في زيارة له إلى مدينة منسك عاصمة روسيا البيضاء، يجدُ نفسه مسافراً إلى قرية قريبة من هذه المدينة واسمها دودوتكي، ومعه صديقه أندري السّائقُ المُترجم، وبينما هو في السيّارة المتوجّهة إلى هذه القرية إذا به يستوقفه منظر شيخٍ مُسنٍّ يسوق عربةً يجرّها حصانٌ والطّقس ماطر وبارد جدّاً، وهو متوقّفٌ بدون حراكٍ لا يدري إلى أين المسير؟ هذا المنظر تشكّلتْ صوره في الطّريق، وتسرّبتْ تفاصيله إلى قلب الشّاعر الواحدة تلو الأخرى، عبر شاشات ذوات إرسال يتشظّى على أكثر من زجاجة أو مرآة، أسردها كما يلي:

زجاجة نافذة السيّارة، زجاجة العين، ثمّ زجاجة القلب، وكلّ زجاجة لها طريقة خاصّة في تشفير رموز الصّورة الكاملة، فزجاجة النّافذة تطلّ على المنظر بتفاصيله المادّية الأرضيّة، وتصف بالتّالي حال الرجل المسنّ، وعربته وحصانه والمطر والبرد القارس والضباب الّذي يلفّ المكان، وزجاجة العين تعملُ على إيصال المنظر ذاته وإعادة تحويله على زجاجة القلب بطريقة مغايرة بحيثُ يتحرّكُ مختبر الرّوح لتحليل الصّور المتهاطلة عليها، فينطقُ لسانُ الشّاعرِ، ويرى نفسه تلميذاً أمام هذا الرّجل المُسنّ، الّذي يطلقُ عليه دونما وعيٍ منه اسم "الشّيخ"، فيكون الاسم لا ليدلّ على عمر الرّجل فحسب، وإنّما على مكانته الرّوحيّة في تلك اللّحظة وقيمته التعليمية والتلقينيّة، بحيث يصبح للقصيدة بكاملها معنى عرفانياً كبيراً، لأنّ الشّاعر تماهى مع كينونة الشّيخ، ورأى نفسه فيه وحبل قلبه بوابل من أسئلة مستقبلية تقول له: أفي هذا المكان أو المدينة تريد أن تُمضيَ حياتَكَ؟ ألا تخشى من

هذا الصّقيع، وهذا الطّقس الكئيب الّذي يقتُل الرّوح، ويُفقِد الذّاكرة والعقل وهجهما؟ أتريد أن تصبح مثل هذا الرّجل، وحيداً إلّا من حصانٍ يقف متسمّراً ينتظرُ حركة من إنسان لا يستطيع لنفسه شيئاً؟ ثمّ يأتي الجواب، كخلاصة لتجربة الشّاعر في هذا المكان ويقول في ختام قصيدته:

((نارُ الشمسِ أهون
من رعدة الصقيع.
وما لون الثلج، مثل قساوة الثلج.

سأعودُ للشمس
أزرعُ السدرَ و النخيل
وأقصُ حكايةَ الزوابع الدكناءْ
حينَ ينقطعُ العالمُ إلى السباتِ و السكونْ
حيث الليل
والوجومْ إذ يطولْ
كأنّما الأيام بصمتها الكئيب
ذكريات أشباح.

كنتُ أعانقُ الصباحَ
والغروب..
بالنخيلِ،
بالنوارسِ، والنهرِ الطويل..
في مداهُ أملُ الحياةْ.

إن لابدّ للخرف أن يكون
فالموت أهون من الجنون.

لابدّ في قدر الأيام
أن تسقط أوراقنا الذابلة
لا أريد أن أهواك!
ما أوسعك.
ما أغربك.
ما أصعبك يا حياة!.)).

خاتمة هي قرار يتّخذه الشّاعر ويأخذنا به من مكان غربيّ يلفّه الموت والصّقيع والخرف، إلى مكان شرقيّ هو موطنُ الشّاعر، فيه الشّمسُ، والسّدر والنّخيل والنّوارسُ والنّهرُ الطّويلُ، وهكذا تتجلّى لنا علاقة الشّاعر بالأمكنة وتظهر بصورة فيها تبادل وجودٍ وتواصلٌ تختلطُ فيه التجارب أحياناً، وتتناقض فيه المشاهد أحياناً أخرى، دون أن يحدّ هذا التّناقضُ من سرعة التنقّل بين الأماكن، كما وقع في قصيدته (لغة الأشياء في الأثير)، وهي التي تؤرّخُ لتواجد الشّاعر في مدينة أخرى هي أنكليز، وهذه المرّة لم يستوقفه البشر وإنّما الشّجر الّذي به يؤسسُ قصيدته بشكل يجعلها مماثلة لحقيقة روحية عميقة تشير إلى قدرة الإنسان على التواصل مع كافّة الكائنات بحيث لا تظهر المدينة هنا مجرّد مكان تتجمّع فيه البنايات، وتتفرّع فيه الشّوارع والأسوار والأزقة، ولكن كروح خلّاقة تتبلور عبر تجلّيات حميمة هي لغة تنتشرُ في الأثير ويلتقطها الدكتور كريم بقلب عرفانيّ مرهف

يقول:

((في أنكَيلز

حيت الغابة المترامية

على ضفاف نهر الفولكا

استوقفني!

الشجر..

صمت من وحيه يكلّمني

في الخواء البعيد

أسرقُ لحظةً من ظلاله

تتراقص هاربة من بين أصابعي

حين الأفانين، تداعبها الريح

أحسّ بالرياح القادمة من الجنوب،

الساخن البعيد،

وهي تحمل أنين جهشة

من آهات النخيل..

والغليون المحترق بدخانه

بتواتر

يتناهد وأنفاسها

وكأنّها لغة الأشياء في الأثير!

يا ربّ الزمن المتوقّف
يا ربّ الحروف الخفيّة
ياربّ الحروف الصامتة
كيف أمليتها خزائن كونك العجيب؟!))

ما يحدثُ هُنا، يقلبُ كلّ الموازين، ويُلغي بل ينسفُ الدّرسَ الأوّل الّذي بلّغه شيخُ دودوتكي إلى الشّاعر في ذاك اليوم الرّوسيّ الماطر، وهذا يحدثُ لأنّ الشّاعر هنا قد التقى بشيخٍ آخر أكثر عمقاً وخبرة في الحياة، وهو شجرُ أنكليز، والواقعُ أنّ الطّبيعة تبهرنا دائماً، وذلك لقدمها في الوجود، فهي سبقت آدم في الظّهور وخبرتها في فهم دروس الحياة دائما أعمق وأقوى وأبلغ، ولها من القدرات ما لمْ يستطع لليوم الإنسانُ أن يفجّرها في ذاته وروحه بالشّكل المطلوب، فالأشجار في أنكليز قامتْ بشيءٍ عجيبٍ أذهلنا جميعاً شاعراً ومتلقّياً؛ لقد رحّبتْ به بلغتها الخاصّة، واعتبرته هو نفسه شجرة، فاقتربتْ منه ولامست قلبه، وسخّرتْ له في لحظة وحيٍ صامت ريحَ المكان الّذي حمل إليه سلامَ النّخيل في وطنه الأمّ، فشعر بدفئها، وأنينها وحنينها وعشقها، وسقطت كلّ الجدران العازلة والفاصلة، وشعر في لحظة وعي روحيّ كبير بتوحّد الأمكنة، وقدرة الشّجر على السّفر وطيّ المكان والزّمان، وتعلّمَ لغة جديدة هي لغة الله في الأثير، وهي نفسها لغة الشِّعر التي بها يرى الشّاعرُ جمالَ الله في كلّ شيءٍ يتحرّكُ، ويتطوّرُ، ويتجدّدُ كما يقول د. كريم نفسه في هذا المقطع من قصيدة (يا لسرّه العظيم):

((اللهُ الجميلُ جِدّاً..
ديمومةُ حياتِنا في هذا الوجود
كلّ شيءٍ بفضله يتحرك.

كلّ شيءٍ يتطوّر
كل شيءٍ يتجدّد... )).

نعم، هذا هو السرّ، فالله هو المكان والزمان نفسه، وهو كلّ المدن التي زارها وعاش فيها الشّاعر، والحياة هي القصيدة، وقلب الدكتور كريم هو عين الله المرسومة في كراسة تجاربه بها يرى كلّ شيء باقٍ لا يموت: ((أرى كلّ شيءٍ في هذا الكون
باقٍ لا يموت
أرى..
(عينَ الله في كرّاسة التشريحِ مرسومةْ).

عين الله المرسومة في كرّاسة الشّاعر لاترى المدن فقط، وإنّما تبكي من أجلها البكاء المرير، وهذا قد بدا واضحاً في قصيدة د. كريم الموسومة بـ (الدّمعة والمدينة)، والتي جاءت كوصف تاريخيّ يوثّقُ للحرب الأفغانيّة– الرّوسية التي استشهد فيها أزيد من ٧٨٩ جنديٍّ روسيّ، وتكريماً لأرواحهم قامت الدّولة بإنشاء جزيرة اصطناعية بالقرب من نهر سفيسلاك في مدينة منسك، وأطلقت عليها اسم جزيرة الدّموع، كما عُرفت أيضًا باسم جزيرة الشّجاعة والألم لتصبح بعد ذلك رمزاً لكلّ ضحايا روسيا البيضاء من الجنود والأبطال المستشهدين ليس فقط في حرب (١٩٧٩–١٩٨٩) الأفغانيّة، وإنّما في حروب الإنسانيّة جمعاء بما فيها الحربين العالميتين الأولى والثانية. والملفت للانتباه في قصيدة د. كريم هو صيغة المفرد الواردة بشأن الجزيرة، بحيث أسماها بجزيرة الدّمعة، وأكّد ذلك مرّة أخرى بقوله: ((على الدّمعة / سمّرتُ نظرتي))، وهي الصّيغة التي تجدُ لها جواباً في المقطع الّذي يقول فيه: ((هابطاً من السماء /حططتُ الرّحال / في منسك الخضراء)). والحقّ

أقول، إنّ عبارة (هابطاً من السّماء))هذه قد تخلق لدى المتلقّى مشكلاً تأويلياً عويصاً، وقد يتساءلُ عن هوية الهابط من يكون؟ وأجيبُ إنّه روح الشّاعر، وأنا لا أؤنّثُ الرّوحَ كما يفعل معظم النّاس، وإنّما أذَكِّره لأنّه يعني بالنسبة لي الوعيَ الإلهيّ الكامن داخل كلّ كائن حيّ، وهو في حالة الشّاعر مَن أخصُّه بصفة الهبوط بأجنحة أثيريّة عبر جسديْن: جسدٍ طينيّ، وآخر معدني هو الطّائرةُ التي حملت د. كريم من مكان إلى آخر، ولذا فإنّ الطّيران هنا مزدوجٌ، ولا يعنيني منه الآن سوى الأثيريّ، لأنّ الرّوح من خلاله سيُسَمّرُ نظرهُ على كائن طائر آخر مثله يقف أمام دمعة كبيرة تجمّعت عند قدميه، وهذا هو السّبب الكامن خلف تسمية الشّاعر للجزيرة بأسرها بجزيرة الدّمعة لا الدّموع، لأنّ دموع هذا الكائن المجنّح، أو تمثال الملاك الّذي يغطّي عينيه بكفّيه، تجمّعتْ عند قدميه على شكل دمعة كبيرة تُلخّص دموع كلّ الأمهات والقدّيسين والملائكة النّاحبين الباكين ضحايا هذه الحروب المدمّرة،. وعليه فروح الشّاعر تعرّف على نظيره في البكاء، مجنّحاً مثله هبط إلى الأرض ليبكي خراب الإنسان الرّوحيّ الكبير، ويستمع للشّاعر وهو يقول: ((تغلغل
الشر في الأرواح
حتى شاهَت في غيّها البشر
تعرى ضميرها الحي
وما من يواسيه
تاه الإنسان في رؤياه
ما زال يصنع قبوره
ولا من يناجيه))

ولأنّ الملائكة لا تفقد الأمل، وتتحرّكُ بالمحبّة، فإنّها ترى كما روح الشّاعر

بأنّ النّجاة ممكنة مادام الحبُّ يقاوم شروخ الحياة ويزرع بذرة الفرح في القلوب، وهي الإشارة التي رآها الشّاعرُ مخزّنة في تلك الأقفال التي يأتي العشّاق الحديثي الزواج ويعلّقونها كرمز للوفاء والعشق النقيّ على جسر غوربتي مع رمي المفتاح في نهر سفيسلاك، بالضّبط كما يقول د. كريم:

((لابدّ للحياة أن تعود

لابد لمنسك أن تكون

خضراء..

على الجسر..

بين الدمعة والمدينة،

دموع الحب باسمة، مختومة

.....

نذور الحب للحياة

تقفل قلوبها،

وترمي المفاتيح للماء

لا بد لمنسك..

إلّا ان تكون خضراء.

. .. .....تكون خضراء))

ومن منسك، وجزيرة الدّموع فيها يأخذنا الشّاعر إلى مدينة أخرى لها مكانة خاصّة في قلبه، وهي ساراتوف، لكنّه هذه المرّة يكتبُ لنا عنها وهو ليس فيها، أيْ وهو في البصرة، وهذا ما يشعل في ذهن المتلقّي المزيد من الأسئلة عن روح الشّاعر المتنقّل بين الأمكنة والأزمنة، ما الّذي حدثَ، أسَفَر

هذا بالقلب في المكان، أم أنّ الأمر فيه علّة أخرى؟ وبقراءة نصّه: (الخواء والمدينة الشّقراء)، يتبيّن لنا أنّ ما حجب ساراتوف عن الشّاعر هو عدوّ خفيّ غامض، يسأله الشّاعر ويقول له: ((تبًّا لك .. أيّها الخفيّ الغامض،
من أيّ كهفٍ مظلم،
غابر أتيت؟
لماذا كمّمت الصخب؟
في الشوارع..
لماذا خنقت إيقاع المدينة؟))

من تراه يكون هذا العدوّ، الّذي خنق مدينة بكاملها؟ لا شيء في النصّ يدلّ عليه سوى فعل (كمّمتَ)، وهو وحده يحيلنا على التّغيير الّذي حدث في العالم بأسره بحيث أصبحت حركة التّكميم أو وضع الكمامة سلوك النّاس اليوميّ، في الشّارع كما في أماكن العمل، وهو وحده يقول لنا إنّ العدوّ الّذي يقصده الشّاعر كريم هو فايروس كورونا!

كما ترى أيها القارئ الكريم، فإنّ علاقة الشّاعر بالمدن هي علاقة شمولية، ونظرته إليها نظرة عميقة واحتوائية بحيث أنه يتحدّث عنها في كلّ الحالات الإنسانية؛ الفرح والحزن، الحبّ والكراهية، الحرب والمرض، وذلك لأنّ المدينة عنده هي التي يتجسّدُ ويتشكّل فيها الإنسانُ بكلّ انشطاراته وتشظّياته وسلوكياته، وهي لأجل هذا تُلهمُهُ قصائد متنوّعة تجمع لحظات مختلفة من تاريخ قريب وآخر حاضر وثالث بعيد. وهي عنده ليست كما قد يراها شاعر آخر، وإنّما المدن في نصوصه مدن "كريميّة درّاجيّة" بامتياز، لها نكهة خاصّة نابعة من أعماق كيانه الرّوحي، يعشقها بعمق، ويتنسّم فيها عطر الذكريات التي هي وقود يبعث فيه الحياة كلّما وجد نفسه بعيدا عنها في

أماكن أخرى جديدة، لذا فلا عجب إذا كانت المدن عند د. كريم مدناً تتزاوج فيها السّماء بالأرض، لتلد لنا شاعراً، يرى المدينة فضاءً كبيراً من الرغبات والأحلام والأمنيات والأفكار والأعمال التي تتحرّكُ في قلوب النّاس، وتدور دورة درويشيّة، اللّه فيها هو المركز الّذي يحرّكها في كلّ الاتّجاهات ويحقّقُ كينونتها ليُظْهِرَ بها سرّه وكنزه الخفيّ.

# (VII)
# معاني الانتصار الرّوحيّ في سرديّات فريد مراد

هل خطرَ ببالك ذات يوم أيّها الإنسانُ أنّ ما يظهرُ لك من كينونتكَ كشيء مادّيٍ هو من خَلْقِكَ أنتَ؟ وهل سبق لكَ أن تساءلتَ عمّن تكونُ أنتَ حقيقةً، ومَنْ أعطاكَ سلطانَ خلقِ جسدكَ الأرضي بنفسكَ؟ لا تتسرّع في الإجابة، وانظرْ يا هذا مِن حولكَ إلى أبسط الأشياءِ في الطّبيعة معلّمتكَ الكبرى، وستدركُ للعمق الهدفَ من تساؤلاتي. انظر إلى الحَجَر الصّغير مثلاً، وبعدَهُ إلى الصّخور الكبيرة ثمّ إلى الجبال، وتَفَكَّرْ كيفَ أنّ هذه كلّها لم تكُن لتَتْوَجِدَ لوْ لم تتجمّع عناصر كيميائيّة وفيزيائيّة وجيولوجيّة معيّنة ساهمتْ جميعُها في تشكّلها عبر بلايين السّنين. اسأل الرّيحَ إن كُنتَ في مريةٍ من الأمرِ، واسألِ الغمام والبحرَ، ثم اسألِ المطرَ، والشّمس والقمرَ، وكلّ الكواكب إذا شئتَ، وسيخبرونكَ أنّهم جميعاً بشكل أو بآخر ساهموا في خلق الحَجر والصّخر والطّيرِ والشّجر بل كلّ شيء تراهُ من حولكَ بما فيهِ أنتَ، لأنّكَ أيضاً لا تشذّ عن هذه القاعدة، وذلكَ لأنّ النّظام الرّوحيّ الّذي زوّدَ بهِ الخالقُ جسدكَ الأثيريّ وكذا النّجميّ الكوكبيّ اكتسبَ هذه الخبرة من يدهِ الإلهيّة التي صنعتهُ فباتَ كلّما توفّرت لهُ الظّروفُ الفيزيائيّة والكيميائيّة، والجيولوجيّة والبيولوجيّة المناسبة يخلقُ الأجسادَ قوالبَ ينزلقُ إليها ثمّ يحلّ ويسكنُ فيها رحلةً بعد رحلةٍ، ووجوداً بعد وجود. وإذا كنتَ مازلتَ لا تُصدّق هذه الحقيقة فدعني أسألك وأقُلْ: أيّهما أسبقُ في الصّنع؛ السيّارةُ أم السّائق؟ أعلم مسبقاً أنّك ربّما ستجيبني أنّ السّائق أسبق في الوجود من السيّارة. أيْ

أنّ السيّارة ما إن تخرج جديدة من المصنع فإنّها تجدُ سائقَها في انتظارها وإنْ كانَ في بلد آخر أو دولة أخرى غير تلك التي تمّ فيها تصنيعُها. جيّد جدّاً. الآن أريدكَ أيها القارئ أن تسأل نفسكَ، أيّهُما أسبق في الوجود: جسدُكَ أم روحكَ؟ طبعاً بناء على جوابكَ عن سؤال السّائق والسّيّارة الأوّل ستقول لي: روحُكَ أسبق في الوجود من جسدكَ. الآن دعني أسألك مرّة أخرى: كم تبلغ من العُمر مادامت روحكَ وُجِدَتْ قبل جسدكَ؟ طبعاً أنت ستقول إنّ بطاقتَكَ الشّخصية تقول إنّك وُلدت في يوم كذا، من الشّهر كذا، من العام كذا، وعليه فإنّكَ تبلغ من العُمر كذا. وأنا أقول لك إنّ عمرَك المسجّل في وثائقك الشّخصيّة كذبة كبيرة، فكيف باللّه عليك تحدّدُ عمركَ، وأنت موجود قبل جسدكَ؟ موجود في صلب أبيك وأبوك في صلب أبيه وجدّك في صلب أصلاب أجدادك الماضين وهكذا دواليك من السلسلة الأصلابيّة التي لا حدّ لها ولا نهاية إلى أن تصل إلى منبع الصّنعة الإلهيّة الأولى، حيث كنتَ روحاً خالصة بدون أيّ هيكل طينيّ! الآن وقد عرفتَ أنّه لا يحدُّكَ عمر، أريد أن أسألك سؤالاً جديداً وأطلب منكَ أن تمعن فيه النّظر والفكر جيّداً: من أنتَ أيّها المحبّ؟ من تكون؟ ولماذا أنت هُنا؟ ستقول لي أنا فلان ابن فلان، ولدتُ في عام كذا، وأعمل في قطاع كذا، وجئتُ لأعيش كما أتى غيري من البشر. وسأقول لك جميل جدّاً، لكن عليك أن تعرفَ جيّداً أنّني لا أُذَكّرُكَ ولا أُؤَنّثُكَ، لأنّكَ خليطٌ من هذا وتلك، وإن كنتَ لا تشعرُ بذلك. لذا، فإذا قلتُ لكَ أيّها المُحبّ، فإنّي أقصد أيضاً أيّتُها المُحِبّة. ولتعلم أنّني لن أخاطبكَ باسمكَ، لأنّ اسمك كما أناك وهْمٌ، وإذا سألتني عن اسمكَ الحقيقيّ الّذي تُعرَف به بين البشر، أقُلْ لك إنّه غير موجود، لأنّك مثل البشر لا محالة مُنمحقٌ ومُنكسفٌ ومُنخسفٌ. انظر إلى الطّفل، إنّه حينما

يأتي إلى الوجود يكون بدون أيّ اسمٍ ولا مركز خاصّ به، أيْ بدون أنا، ولمدّة تسعة أشهر كان في رحم أمّه مرتبط بمركزها وأناها واسمها، فقط حينما يولد يبدأ في التّفكير بامتلاك مركز مُنْفصل خاصّ به من باب المنفعة حتّى لا تكون حياته صعبة أو مستحيلة وهو يصارع من أجل النّجاة. وأنا أدعوك الآن لتغوصَ في نفسك حتّى آخر قطرة فيكَ، إذا فعلت هذا، سوف تجد أنّ اسمك قد اختفى، كما اختفت أيضاً أناك، لأنّك مرتبط بالمركز الوحيد والواحد في الكون بأسره: خالقُ كينونتكَ الرّوحيّة جلّ جلاله. ألم تسمعه يقول: كلّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربّك ذو الجلال والإكرام؟! لأجل هذا إذا سألتني من أنا، ومن أكون، سوف أبقى صامتةً، ولن أجيب لأنّني لم أعُد أنا، لم أعدْ منفصلةً، فأنا كلّيّة تماماً، لكن عليّ كما الجميع أن أستخدم ضمير (أنا) مع أنّه وهميّ لأقول مثلا: إنّني جائعة، أريد أن آكل بعض الخبز، وسوف تفهمني، وليس من المنطقيّ في شيء أبداً أن أقول لكَ: إنّ مركز الكون الكلّيّ جائع ويريد أن يأكل. سوف لن تفهمني، مع أنّ عبارتي هذه هي الأكثر دقّة، لأنني أنا وأنت وهم وغيرنا مرتبطون بمركز الكون، ولا توجد مراكز أخرى غيره، وقد قالها الخالق منذ الأزل: ((لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)) (١). أمّا إذا سألتني عن اسمي، فلربّما تجد في اختلافاً، أنا اسمي" أسماء"، أيْ لستُ اسماً واحداً، ووُلدت في عام ١٩٧٢، ورقم ٧٢، عند أهل المعرفة والأسرار، يعني اسم الله الأعظم غير المنطوق أبداً، وبهذا يُصبح اسمي كاملاً: أسماء الله، وإنّ فيه تجسيداً للحقيقة التي تقول إنّه لا اسم في الكون كلّه إلّا أسماء الله، وكل اسم غيرها هو وهْم، نعم، وهْمٌ جميل يصلح للتّعامل به مع النّاس، وتكوينِ الأنا من أجل أداء أدوارك في هذه المسرحيّة الكبرى التي هي

الحياة. وقد تغترُّ أيّها المحبُّ إذا قلتُ لكَ إنّ حياتكَ هي مجرّد حروف تكتبُها فوق رمال الشّاطئ، يأتي الموج ثمّ يمسحُها، في حين أنّ الحقيقة هي أكبر وأسرع من ذلك بكثير: إنّك لا تكتبُ على الرّمل، هذا وهم كبير، إنّما تكتبُ حروفَ ما تُسمّيه حياةً فوق الماء مباشرة، وإنّها لتنمحي قبل أن تستطيع قراءتها مع كامل الأسف. هذه هي الرّحلة الكبرى: كتابة فوق الماء لا أقلّ ولا أكثر! لذا عليكَ أن تبدأ من الماء، وأنا من الماء الّذي غرقَ فيه بولص الأوّل عمُّ كاتب القصص التي بين يديّ سأبدأ(٢)، وما دلّني على بولص غريق نهر السّقلان(٣) سوى أخي في الخليقة العالم الألمانيّ بيرت هيلّينجر، حين قال لي عبر نظريته عن الكواكبيّات العائليّة، إنّ السرّ كلّه في بولص وأمّه حانة، الأمر الّذي دفعني إلى قراءة كلّ قصص المجموعتيْن لأجدَ فريد مراد وقد تقمّص دور المعالج الكواكبيّ، ليتمكّن من السّفر في علل وآلام وأحزان أسرته فبدأ بأمّه ليصل إلى جدّته ومنهما إلى والده ثم إلى أجداده الأوائل وليقف بالتالي عند مأساة شعبه الآزخيّ بأكمله، وكيف لا وقد أدركَ أنّ العلاج لا يمكنه أن يكون إلّا عن طريق الكتابة لأنّها الوحيدة التي ستمكّنه من ضبط الشّخصيات وتحديد العلّة الأساس في الجذر الآزخيّ، والتي هي توارثُ الأدوار وتقمّص الأقدار في العائلات الآزخيّة الواحدة تلو الأخرى، بما فيها قَدر الهجرة، وقدَر الإصابة بداء السّرطان وما إليهما من محن أخرى لا تعدّ ولا تُحصى. وقد تطلّبَ الأمرُ من "فريد" وهو اسم أراه بالولادة مُستعاراً استخدمه بشكل مؤقّتٍ للدّخول به بيولوجيّاً إلى قاعة المسرح الكونيّ الدّنيوي، لأنّ اسمه الحقّ من وجهة نظر الغائصين في علوم الرّوح هو" بولص"، اسم أبيه واسم عمّه البكر، والدليل على ما أقول، صرخة الجدّة حانة في قاعة المحكمة وهي تقول: "لا لا لا، لن أسمح لكم أن

تأخذونه مني! إنَّه ابني إنَّه ابنـــي". (٤). لم تكن السيّدة حانة مجنونة كما يراها الآخرون، وإنّما نطقت بلسان الرّوح، وهي وحدها تعرفُ حقّاً من يكون الماثل أمامها لأنّها هي من سلّمته مقاليدَ دوره الجديد في الحياة بعد أن كان قد تنازل عنه كلّ أعمامه الّذين غادروا الدّنيا صغاراً وكانوا هم الآخرين يحملون الاسم ذاته، وقد فعلتْ السيّدة حانة هذا بـ "فريد" لأنّه هو الوحيد الّذي خرج من صلب أبيه الذي صمد في الدّور البولصيّ إلى أن تزوّج وأنجبه ثمّ وافته المنية مصاباً بمرض أبو صفار.(٥)

لن تقف سلسلة توارث الأدوار هُنا، وإنّما سيكمل فريد المشوار، وسيرتبطُ بوالدته بشكل عجيب بعد أن فقد والده، وبعد أن كان قد أصبحَ بولصَ العمّ، هاهُوَ سيصبحُ بولص الأب الرّاحل وسيتولّى رعاية أمّه ويأخذها للعيش معه في السّويد، وقد حكم على نفسه وعليها بالهجرة تنفيذاً لقرارات الأجداد الرّوحية عبر اللّاوعي الجماعيّ في ترك آزخ منذ القدم هرباً من نيران الحروب والطّغيان والاضطهاد الدّينيّ (٦)، لكن السّؤال الّذي يطرحُ نفسهُ الآن وعبر قراءة سرديات الكاتب على طول المجموعتين القصصيّتين هو الآتي: متى سيكتشفُ "فريد" الّذي هو "بولص" أنّه مثل معظم أبناء شعبه محكوم بالإرث الجينيّ لبرنامج قدريّ حبكته أيادي الأجداد ومن أتى بعدهم على كافّة المنظومات العائليّة والمجتمعيّة سياسية كانت أو اقتصادية أو دينيّة؟ وعن سؤالي هذا يجيبني صديقي العالم بيرت هيلّينجر ويقول: "حينما قرّرَ "فريد" أن يُصاب بمرض والدته سوزان، وذلك ليصعد بنفسه على خشبة آلامها التي يعتبرُ نفسَهُ لا شعورياً مسؤولاً عن بعضها باعتبار أنّ بُعده عنها وفراقهما عن بعض لفترة طويلة من الزّمن كانا قد ساهما بشكل أو بآخر في عذاباتها النّفسيّة" (٧). وكما فعل "فريد" فعلتْ ابنة أخيه "لينيتّا" لأسباب قد

تختلف كثيراً عن أسباب عمّها فريد نفسه، لكنّها تصبّ في النّظرية العلميّة والطبّية نفسها التي خاض فيها وكتب عنها كثيراً بيرت فيما يتعلّق بالأنظمة الكواكبيّة العائليّة (٨). ولمن يسأل لماذا فعل فريد بنفسه هذا، أقول: الحبّ هو المحرّكُ الأساس الذي يقف خلف كلّ تطوّرات الأحداث وتقلّباتها في حياته وحياة كلّ من يرتبطُ به سواء برابطة الدّم، أو الانتماء إلى آزخ والوطن الكبير، وهو الحبّ نفسه الّذي سيقوده إلى الخلاص الحقيقيّ، حينما سيكتشفُ فريد في غربته أنّه ثمّة وطن آخر أكبر من وطن الأجداد، وهو الوطن الكونيّ الإلهيّ العظيم، والدليل على ما أقول هذا المقطع الّذي أقتطفه لك من إحدى قصصه والذي يقول فيه: "يا الله كم هو جميل فصل الخريف! قلتها وأنا أتنفَّس الصّعداء وأنظر إلى روعة المنظر من حولي وأمامي وفوقي وتحتي. تطلَّعتُ على مدِّ النَّظرِ، فخِلتُ نفسي أمام لوحة فسيفسائيّة، نمَّمتها أيادي ماهرة.

جذبني جمال إحدى الأشجار، فتوقّفت عندها قليلاً، فراقني تنوّع ألوان أوراقها، مددتُ يدي، وقرَّبتُ إحدى الأغصان إلي، فأذهلني المنظر، وتعجّبتُ وسبَّحتُ الخالق عندما رأيتُ ما يحمل هذا الغصن الواحد على جنباته من جمال .. فهذه ورقة بلون المخمل القاتم، وهذه ورقة ناريّة، وأخرى بنِّيَّة بلون الأرض، وهذه ذهبيّة اللَّون، وتلك لازالت خضراء يانعة، يعلو سطحها بريقاً لامعاً .. وألوان أخرى كالخوخي واليقطيني والمرجاني والكستنائي والعسلي، وهذه ورقة قد يبست تماماً، فما أن أخذتُها بيدي، حتَّى تكسَّرتْ وتفتَّتَتْ وتناثرتْ، فقلتُ سبحان الله، هكذا حال الإنسان أيضاً، يبدأ صغيراً يانعاً، فيكبر ويزهو، ثمَّ يبدأ بالذُّبول والاصفرار، ثم يتحوَّل إلى لون الأرض، ليسقط في النّهاية، ويتَّحد معها، ويتلاشى ويذوب. وما زادني دهشةً

وانبهاراً، هو عندما نظرتُ إلى بعض الأوراق، فرأيتُ في الورقة الواحدة لوحات متعدِّدة تحكي كلٌّ منها قصّة متنوِّعة .. فهذه ورقة قد اِصفرَّت بكاملها، سوى بقعة صغيرة خضراء بقيت مستقرّة في منتصفها كواحةٍ خضراء في صحراءٍ قاحلة وهذه أخرى بنِّيّة اللَّون، لم يبقَ على سطحها سوى بعض الخطوط الصَّفراء، كالشَّمس المشرقة على وجه الأرض، وهذه ورقة خضراء مبرقعة بالأصفر والبنِّي ونقاطٌ متفرِّقة من اللّون الأحمر النّاري، وتموّجات ظاهرة من اللَّونِ اللَّازوردي والفيروزي والفستقي، تنظر إليها، وكأنَّك تنظرُ إلى الأرضِ من شبّاك الطَّائرة الصَّغير. تابعتُ مشواري، بصدرٍ منشرح، وأنا أسيرُ فوق خشخشات الأوراق اليابسة، الَّتي كانت قد غطَّت الطَّريق، وراحت تتطاير هنا وهناك على جانبيَّ الطَّريق وأمامي، بينما كانت الرِّياح الخفيفة تداعب أغصان الشَّجر فتتمايل وتتموّج، ومع تمايلها وتموّجها تتطايرُ الأوراق وكأنّها أسراب طيور مهاجرة " (٩). توقّفتُ طويلاً عند هذا المقطع، وقرأته لأكثر من مرّة إلى أن رأيتُ فيه بعيني الدّاخليّة أنّه المفتاح الرّئيس لقراءة سرديّات فريد مراد كاملةً، وعليه وجدتُّني أحدّدُ العناصر التي ظهرَ بها القاصّ كرجلٍ حكيمٍ أفاد الكثير من رحلته الحياتيّة، وأصبح دون أن يدري ينطقُ بكلامٍ لهُ أكثر من طبقة تأويليّة على مستوى الوعي الدّاخلي، فهو حينما قال: "يا الله كم هو جميل فصل الخريف!"، حدّدَ المحطّة السّفريّة التي يقف فيها حقيقة، وهي خريفُ الحياة، ولربّما تلك التي كان يطلّ فيها على سنواته الستّين(١٠)، وهي بالتالي الفترة التي يبدأ فيها الإنسان باستخراج عصارات الحياة وحِكمها ودروسها وعِبَرِها. أمّا حينما قال: "وأنا أتنفَّس الصّعداء وأنظر إلى روعة المنظر من حولي وأمامي وفوقي وتحتي.تطلَّعتُ على مدِّ النَّظرِ، فخِلتُ نفسي أمام لوحة فسيفسائيّة، نمَّمتها

أيادي ماهرة."، فإنّ الأمر فيه إشارة إلى رحلة المشي في الشارع التي يوافقها في الوعي الهولوغرافيّ المشي في سنوات الحياة، والوقوف بالتّالي في مرحلة معيّنة من أجل إعادة النّظر في الأمور وترتيب الأوراق والأفكار بشأن الكون والّذي عبّر عنه بكلمة "لوحة فسيفسائيّة". وهذا الوقوف تطلّب من الكاتب في واقعه الرّوحي محاذاة شجرةٍ رأى في أوراقها رمزاً وإشارة على تنوّع الخلق وثرائه، لكنّ الجميل في كلّ هذا هو أنّه بينما هو ينظر بعين روحه إلى هذه الشّجرة وأوراقها العجيبة تعرّف فيها على أسرته وأبناء شعب آزخ العظيم، وهو ما تدلّ عليه عبارته التي قال فيها: (تابعتُ مشواري، بصدرٍ منشرح، وأنا أسيرُ فوق خشخشات الأوراق اليابسة، الّتي كانت قد غطّت الطَّريق، وراحت تتطاير هنا وهناك على جانبيَّ الطَّريق وأمامي، بينما كانت الرِّياح الخفيفة تداعب أغصان الشَّجر فتتمايل وتتموّج، ومع تمايلها وتموّجها تتطايرُ الأوراق وكأنّها أسراب طيور مهاجرة )، نعم هي الأوراق أهله وأبناء وطنه، وهي ذاتها أسرابُ الطّيور المهاجرة، وإذ أقول هذا فإنّي أعني أنّ الورقة هي روح، وكلّ روح تسقطُ من شجرة كيفما كانتْ، فإنها تقابلها على الواقع الأرضيّ روح إنسان قد غادرت هذا الوجود، وكلّ الأوراق اليابسة التي توقّف عندها فريد في رحلته هي مَن مات من أهله وأحبّته، لذا كان أهل الحكمة قديمًا يوصون الإنسان بعدم المشي فوق الأوراق المتساقطة لأنها ترمز إلى أرواح ذراري البارئ، شأنها في ذلك شأن النجوم في السّماء، ومن أوراق الأهل والوطن الكبير سيقع في حياة فريد تغيير كبير، وهو في طريقه إلى الوعي الأكبر، واليقظة الدّاخلية العظمى، تغيير سينقله من شجرة الحياة الماديّة إلى شجرة الحياة الرّوحيّة وهو في المشفى حينما رأى نفسه تحت شجرة تفّاحٍ، كما يبدو واضحاً في هذا المقطع الّذي يقول فيه: "ورأيتني أسير

في طريقٍ طويلة تظلّلها الأشجار المتنوعة الثمار من كِلا الطرفين .. كنت أسير وأسير .. لم تكن الأرض مستوية ..كان هنالك التلال والهضاب والوديان .. كانت أشعّة الشمس تلهفني كلما تسرَّبت من خلال فجوات الأغصان فتزيدني عرقاً وتعباً .. كانت ثمَّة غيوم بيضاء متفرِّقة تسير بعكس الإتجاه الذي كنت أسير..

لم أرَ بشراً في طريقي ، ولا حيوانات تدب على الأرض .. ما خلا بعض الطيور والفراشات التي كانت تتنقَّل هنا وهناك ، وتطير من غصنٍ إلى آخر .. ثمَّة أصوات آدميّة غير مفهومة كانت تأتي من جهات مختلفة ..كانت صورة الوجه البهي ترافقني أينما سرت .. كنت أراها كيفما نظرت على أغصان الشجر، وفي زرقة السماء ، ومن خلال الفجوات التي تتسرَّب منها أشعَّة الشمس الذهبيّة، وفوق الهضبة ، وعلى قطع الغيوم البيضاء السيَّارة بعكس مسيري .. كانت كأنها مطبوعة في حدقة عيني من حيث لاأدري .. وكنت أسير وأسير ..إلى أين .. لست أدري ؟ ما غايتي من المسير ، وإلى أين سأصل .. أيضاً لم أكن أدري ؟!.. وكنت أحس بالتعب أكثر فأكثر .. وكان العرق يتصبب من جسدي بغزارة ..نظرت إلى صورة الوجه البهي وقلت : متى سأصل يارب؟ أجابني وقال : ستصل ..ستصل ..مادمتُ معكَ .تابعت سيري لكني شعرت بعد قليل وكأنني لاأستطيع الاستمرار ..كان لابدَّ أن أرتاح قليلاً ، ربما لكي أستعيد بعض نشاطي، وأتابع من جديد .استلقيت تحت شجرة تفَّاح وارفة ، تحمل أنواعاً وأشكالاً عديدة من التفاح الأحمر القاتم ، والأحمر الفاتح ، والأصفر والأخضر والتفاح ذات اللونين...ودخلت من شدة تعبي في نومٍ عميق .. كانت صورة الوجه البهي لاتزال أمام عينيَّ المغمَّضتين .. شعرت بقليل من الراحة وأنا في غفوتي العميقة ..تمنَّيت أن

يطول نومي كي أأخذ قسطاً أكثر من الراحة" (١١). لا شكَّ أنّك ستتساءلُ عن صاحبِ الوجه البهيّ في هذا المقطع من يكون؟ وعنه أقول لك: إنّه الّذي قادَ الكاتبَ وهو في غرفة العمليّات إلى شجرة التّفاح ليعاين كوناً جديداً أشدّ شساعة من كون الشجرة الأولى ذات الأوراق المختلفة الأشكال والألوان، وذلك لأن شجرة التّفاح هنا هي رمز لشجرة الخلق والتكوين والمعرفة، وهي المعرفة التي بها حرّر القاصُّ نفسه من ربقات الماضي وآلامه وأحزانه وأحزان أجداده ليدخل إلى مرحلة جديدة هي مرحلة شفاء ليس فقط من مرض السّرطان وإنّما من أمراض أخرى لها علاقة بما هو دينيّ، وما هو سياسيّ وإيديولوجيّ ليصبح أكثر انفتاحاً على العالم وبنظرة أكثر عمقاً ورحابة ربّما ستقوده إلى أن يكون العنصرَ المجدّد في الأسرة الكونيّة والذي سيسعى في البُعدِ الرّوحي إلى قطع ذلك الحبل السرّي الذي يربط مصائر العديد من أفراد أسرته الصّغيرة والكبيرة بعضها ببعض حتى لا تتكرّر مأساة لينيتّا، ولا يرث الجيل الجديد أفكار وعلل وآلام الأجيال السّابقة: هذه هي المهمّة الجديدة إذن والتي تقتضي منه الحفاظ على انتصاره الأوّلي في معركة الحياة والخوض في تجارب جديدة أكثر حيويّة وعمقاً، بأمر صاحب الوجه البهيّ الّذي ما هو سوى الذّات الواعية العليا المنغرسة داخل كلّ إنسان والّتي بها يبقى متّصلاً مع وطنه الأصل والحقّ، عالمُ المُلكِ والملكوت والأخدار السّماوية العليا.

**الهوامش:**

**١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.**

**٢)فريد مراد، (عندما كنتُ أراها مقبلة)، و(الدنيا كما كنّا نراها)، دار نشر صبري يوسف، ستوكهولم، ٢٠١٨ / ٢٠١٩.**

**٣)فريد مراد، مأساةُ أمٍّ معجونة بالسّلام، من (عندما كنتُ أراها مقبلة)، دار نشر صبري يوسف، ستوكهولم، ٢٠١٨، صص، ٤٥/٤٦.**

**٤)المصدر نفسه، ص٦٥.**

**٥)المصدر نفسه، ص ٦٢.**

**٦)انظر في هذا الصّدد القصص التالية: (المعذرة يا جدّي)، من (عندما كنتُ أراها مقبلة)، دار نشر صبري يوسف، ستوكهولم، ٢٠١٨، ص ٨٤. / و(تأخّرت يا بنيّ)، ص ٣١، / و(حكمتك يا ربّ) من (الدّنيا كما كنّا نراها)، دار نشر صبري يوسف، ستوكهولم، ٢٠١٩، ص ٨٧.**

**٧)فريد مراد، (عندما كنتُ أراها مقبلة)، دار نشر صبري يوسف، ستوكهولم، ٢٠١٨، صص، ١٢٥/١٢٦.**

**٨)بيرت هيلينجر، وجها الحبّ، كريساليدي، إيطاليا، ٢٠٢٠.**

**٩)فريد مراد، مشوار في يومٍ خريفيّ، من (عندما كنتُ أراها مقبلة)، دار نشر صبري يوسف، ستوكهولم، ٢٠١٨، صص، ١٠/١١.**

**١٠) انظر في هذا الصّدد عبارته: (فالتقدّم في العمر، والمكوث في البيت، والتَّراخي والكسل، كلُّ هذه الأمور قد تؤدّي إلى تراكم الأمراض، كارتفاع نسبة الكولِسترول، والضَّغط، والسّكري، والقلب، وإلى ما هنالك من أزمات، من شأنها الاستعجال في رحيلك).**

**١١) فريد مراد، صاحب الوجه البهيّ، من مخطوطة قصصيّة.**

# (VIII)
# المجتمعُ الكونيّ في قصص فريد مراد

حينما يجلسُ الأديبُ إلى مائدته، فإنّهُ يكونُ في حضرة الحرفِ، والحرفُ روحٌ لهُ شكلٌ باطنيّ داخليّ، وآخر ظاهريّ خارجيّ، فأمّا الباطنيّ فهو ليس في متناول كافّة النّاس، ولا تُمكنُ الإحاطةُ بهِ لأنّه ينتمي إلى عالم الأرواح القدسيّة المكلّلة بالجمال والبهاء، وأمّا الظّاهريّ فهو القناةُ التي من خلالها يعبرُ الرّوحُ القُدُس، فتكون النتيجة أن يتعلّقَ الحرفُ بالكينونة الإنسانيّة فيصبحُ محدوداً ومرئيّاً بوصالٍ رمزيّ يقع في هيكل الله على الأرضِ الّذي هو جسدُ ابن آدم، وهذا النّوع من التّعلّق يقتضي من الأديب أن يكونَ من أهل الطّفولة والمحبّة، وهما صفتان وجدتُهما حاضرتيْن معاً في شخصيّة الكاتب والقاصّ فريد مراد وأنا أقرأ لهُ مجموعتَه القصصيّة (الدّنيا كما كنّا نراها)، والتي صدرت العام الماضي (٢٠١٩) في السويد باللّغة العربيّة عن دار نشر صبري يوسف، وأقول هذا لأنني رأيتُ الحرفَ يُمسكُ بيد الكاتب القاصّ ويأخذه إلى طفولته الأولى، ويدخلُ به إلى سينما العقل الباطنيّ ليجرد أمامه الكثيرَ من الأحداثِ والصّور، وهو ينظرُ لها مندهشاً من جمالها وبساطتها وعذوبتها ولطافتها، فيستخلص منها الكثير من العِبَر والحِكَم، وعلى ضوئها يقرأُ حاضره مُقارناً بين ما مضى وما هو حاضر، وكيف سيكون تأثيرهما على ما هو آتٍ. نعم، يا أحبّتي، الحرفُ عند فريد شحرور عجيب، يسمعُ نداء الطّفولة فيظهر بِاسْم الحبيب تارة، وأخرى بِاسْم المحبوب، وتارة ثالثة بِاسْم القلم الأعلى فينطقُ نوراً فيّاضاً بالحقيقة على

طلّابها ونشّاد سبل المحبّة والأمن والسّلم والسّلام. لأجل هذا لا يُمكنكَ وأنت تقرأُ قصصَ فريد أن تشعر بصراع الشّخصيات في سرديات الطّفولة، وإن اختلفت عقائدها وانتماءاتها الدّينيّة، إنّهم أسرة واحدة متكاملة متناسقة، فسبحان من مرّت عليه نسائم الرّحمن فعلّمته علمَ ما كان، وقالت له؛ إنّ الأرضَ وطن واحد، والبشرُ سكّانُهُ. هذه هي رسالة فريد حتّى في مجموعته القصصيّة الأولى (عندما كنتُ أراها مقبلة)، يكفي أن تقرأ منها قصّة (سائق التّاكسي) السيّد حسن، الرّجل الطّيب الخلوق المسلم الدّيانة الّذي نسيتْ بداخل سيارته أسرةٌ مسيحيّة كلّ ما كانت تحمله من مالٍ وذهبٍ لتجهيز العروس، فما كان منه سوى أن لجأ إلى الكنيسة وأخبر الكاهن شكري توما بالقصّة فساعده في إيجاد الأسرة المعنية بالأمر، بعد أن أعلن عن ضياع الحقيبة على المنبر في القدّاس الإلهيّ. ولا أنسى أبداً قصّة الممرّضة المسيحيّة التي رغم المرض وقساوة الظّروف بعد أن تخلّى عنها زوجها، فإنّها أخذت على عاتقها مسؤوليّة رعاية الطّفلين المسلميْن أحمد وأمين المصابيْن بشلل الأطفال، والّذيْن بقيا وحيديْن بعد وفاة والديْهما، فما كان من الممرّضة مريم سوى أن تفي بالوعد وتنفّذ وصية والدة الطّفلين لها قبل مغادرتها الحياة بالاعتناء بهما والسّهر عليهما، فنالت بذلك القداسة وأصبحت ممّن تظهر عليهنّ بشائر الله وعلاماته! وهذا يعني أنّ الأسرة في قصص فريد مراد، هي أسرة كونيّة، يجمعُها الحبّ الفطريّ ومشاعر الأخوّة والتّضامن والتعاون الإنسانيّ، ممّا يعتبر رسالة صريحة من الكاتب ودعوة منه لإحياء الّذي كان في حياة النّاس والأسَر لفترة غير بعيدة من التاريخ الحديث من المشاعر الطيّبة، ومحاولة تجاوز ما جدّ وظهر من عدوان وأحقاد نأتْ بالإنسان عن طبيعته وفطرته التي جُبل عليها، لا سيما وأنّ

ذاكرة فريد الإبداعيّة تحمل العديد من الصّور المؤلمة التي تشهدُ على كيف أنّ الكثير من النّزاعات الدّينية عبر التاريخ تسبّبت في اندلاع العديد من الحروب والإبادات ومآسي التهجير والنزوح من الأوطان، ولأجل هذا أتتْ نصوصه القصصيّة في كلا المجموعتيْن لتؤكّد، بأنّه من الممكن جدّاً تجاوز كلّ هذا عبر العمل على تفعيل الأحداث الطيّبة والوقائع والقصص الإنسانيّة ذات البعد الأخلاقيّ العميق في ذاكرة الماضي الإنسانيّ بدءاً من الطّفولة إلى اليوم، ومحاولة وضعها أمام المرآة عبر فعل الكتابة حتّى يتسنّى للمتلقّي القيام بمقارنة بين الّذي كان من صفاء في فكر وقلوب النّاس البسطاء، وبين الضغائن المشتعلة والحروب المندلعة اليوم في كلّ مكان، فيكون في الأمر نوعاً من التّحفيز على السّعي إلى البحث عن سبل لإزالة الخلافات القائمة بقلوب مفعمة بالحنان وبالرّغبة في توخّي الحقيقة، وهي الرسالة نفسها التي يوجّهها القاصّ فريد حتّى إلى رجال الدّين وقد ظهر هذا جليّاً في الفقرات الأخيرة من نصّه (عندما كنتُ أراها مقبلة) بحيث يصبح ممكناً دعوتُهم إلى دفن خلافاتهم الفقهيّة بروح عالية من التسامح علّهم يستطيعون العمل معاً في سبيل إحلال سلام الإنسانيّة وتعزيز التفاهم الفكريّ على أكثر من مستوى عبر القبول بمبدأ وحدة الجنس البشريّ من أجل إعادة تنظيم العالم وإدارته كوطن واحد لأبناء البشر، كما ظهر في قصص كثيرة من سرديات فريد كتلك التي تروي عن الزّوجيْن الرّحيميْن الّذيْن تبنّيا الطّفل اليتيم شادي بضمان تربيته وما يتوجَّب عليه من نفقات ماديّة للمأكل والمشرب والملبس والدِّراسة في دار الأيتام التي كان يقيم فيها إلى أن تخرّج طبيباً دون أن يتمكّن من رؤية والده السيّد جميل، لكنّ لطف الله شاء أن تسافر إليه الأم فادية بعد وفاة زوجها، لتلتقيَ ابنَها الوحيد، وكان لقاءً تعجز عن وصفه

الكلمات. هذا هو المجتمع الإنسانيّ في سرديات فريد، إنه يُبشّرُ بالسّلام والوئام بين البشر، وذلك لأنّ الكاتب نفسه يؤمن بأنّ الإنسان خُلقَ ليحمل حضارة راقيةً دائمة التقدّم وليس ليسلكَ مسلكَ الوحوش في الغاب، وبأنّ الفضائل التي تليق بكرامة كلّ فرد هي التّسامح والإخاء والرحمة والمودّة بين البشر أجمعين.

# (XI)
# قراءة بعين الرّوح في كتاب (طيّ الأرض)

(طيُّ الأرضِ) هو جديد إنجازات الشّيخ عبد الحليم عوض الحلّيّ الفكريّة، والّذي صدرَ حديثاً (١٣ –٠٧– ٢٠٢٠) في بابل عن دار الفرات للثقافة والإعلام بالاشتراك مع دار سما للنشر والتوزيع، وقد جاء فيما يُقارب ٢١٤ صفحة من الحجم المتوسّط، وكما يدلُّ عليه عنوانه، فهو يناقشُ ظاهرة كثيراً ما تتَرَدّدُ الأقلامُ في الخوض بشأنها، أوّلاً لقلّةِ المصادر التي تتناولها بالتحليل والمناقشة العلميّة والدّينية العميقة والواعية الرّصينة. وثانياً لعدم تصديق العديد من النّاس بإمكانية حدوثها فعلاً وحقيقة. ولهذا أتى كتابُ العلّامة عبد الحليم عوض ليميط اللّثامَ عمّا خفي من هذه الظّاهرة وليجعل الحديثَ عنها في متناول النّاس على اختلاف مستويات التلقّي والتفكير لديهم، فاستهلّ خطابه بالحديث عمّا تشهده الإنسانيّةُ اليوم من تقدّم علميّ باهر من حيث المنجزات العلميّة والمعلوماتيّة التي أصبحت تُيَسِّرُ للفرد سُبُلَ التّواصل والاتصال بأيّة بقعة من الأرض، ومع أيّ شخص مهما بعدتِ المسافات، عبر أجهزة تسمح له بالرؤية والكلام والتنقل من مكان إلى آخر حتّى لكأنَّ الأمرَ أصبح عادياً في الحياة اليوميّة دون أن ينتبهَ الإنسانُ إلى أنّ ما حققتْه هذه العلومُ من إنجازات وتغييرات في حياة النّاس من حيث التّواصل والحركة والتنقل عبر الأمكنة والأزمنة إنّما هو لا قيمة له تُذكر في عُرْفِ وميزان من أدركَ هذا من باب القُدرة الرّوحيّة على تحقيق ما قد يُعتَبَرُ اليوم من الخوارق والمعجزات، ولعلّ هذا ما يبرّرُ ظهور كتاب (طيّ

الأرض)، ليذكِّر النّاسَ بأنّ ما يرونه اليوم تقدّماً علميّاً إنّما عرَفَ الأجدادُ ما هو أفضل وأقوى وأعمق منه قبْلَنا منذ عصور قديمة جدّاً، ولكي يُثبتَ الشّيخُ عبد الحليم عوض صحّة هذه النّظرية فإنّه لم يدّخر جهداً للبحث في شتّى المصادر ليجد الأحاديث والقصص التي تروي وتؤكّدُ طيّ الأرضِ وحدوثه على أكثر من مستوى وبِنْيَة سواء من الناحية الجسديّة أو الرّوحيّة أو من حيث البِنية الزّمكانيّة التي يوجد فيها من تحقّق له طيّ الأرض بما في الكلمة من معنى. وهذا ما يفسّرُ كيف أنّ الكاتبَ بدأ بضرب العديد من الأمثلة المستوحاة من قصص الأنبياء والأئمّة المعصومين وأولياء الله الصّالحين وقد توقّفَ طويلاً عند قصّة سليمان (ع) وكيف أنّه كان إذا ركبَ الرّيح تقدّم أمام بساطه البعوضُ، ثمّ الزنابير وكلّ ما يطير في الهواء والشّياطين أيضاً، وكيف أنّ معسكره الطّائر معه فوق البساط العجيب كان يتألّف من مئة فرسخ في مئة فرسخ، خمس وعشرون للجنّ، وخمس وعشرون للإنس، وخمس وعشرون للطّير، وخمس وعشرون للوحش. وكم هي أيضاً رائعة وجميلة حكاية سليمان مع عرش بلقيس وحضورها عنده قبل أن يرتدّ إليه طرفه، حينما خرّ وزيره آصف بن برخيا ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشُها حتّى نبع عند كرسيّ النبيّ!

والأهمُّ في هذا كلّه هو أنّ الشيخ عبد الحليم عوض، لا يُنكِرُ أبداً إمكانية حدوث طيّ الأرض حتّى للعامّة من النّاس، وقد أورد في هذا المضمار العديد من القصص منها تلك التي جاءت فيما رواه ابن الجوزي في صفة الصفوة عن موسى بن هارون حينما قال: ((رأيتُ الحسن بن الخليل مرّة بعرفات وكلّمته، ثمّ رأيتُهُ يطوف بالبيت، فقلت: ادع لي الله أن يقبل حجّي. فبكى ودعا لي. ثمّ أتيتُ مصر، فقلتُ: إنّ الحسن كان معنا بمكّة، فقالوا:

ماحجّ العام. وقد كان يبلغني أنّه يمرُّ إلى مكّة في كلّ ليلة، فما كنتُ أصدّقُ حتّى رأيتهُ فعاتبني وقال: شهرتني، ما كنتُ أحبُّ أن تحدّث بها عنّي، فلا تعد بحقّي عليك. فلمّا كان بعد مدّة دخلتُ المسجد، فإذا بأحد الفتيين جالساً في المسجد، فسلّمتُ عليه. فقال: يا أبا الحارث، خُنت الله تعالى عهدك، ولم تف به، أمّا إنّك لو صبرت معنا أعطيتَ ثلاثة أحوال، وقد أعطينا. فقلتُ: وما الثلاثة؟ قال: طيّ الأرض، والمشي على الماء، والحجبة إذا أردنا، واحتجب عنّي عقيب كلامه، فقلتُ: بالّذي أوصلكَ إلى ما رأيتُ إلّا ظهرت لي حتّى أسألك عن مسألة. فظهر لي، وقال: سل يا أبا الحارث وأوجز. فقلتُ له: كيف لي بالرجوع إلى هذه الحالة، ترى إن رجعتُ قبلت. فقال: هيهات يا أبا الحارث، بعد الخيانة لا تقبل الأمانة. فكوى قلبي بكيّة لا تخرج من قلبي حتّى ألقى الله عزّ وجلّ)).

ليس بالغريب أبداً في أنّ خيانة الأمانة تورثُ الحرمانَ من الوصول إلى هذه الكرامات، وهذا ما يفسّر استحالة تحقيقها لدى معظم النّاس في عهدنا المعاصر، فلكي تُطوى للإنسان الأرضُ، يجبُ أن يتعلّم قبل كلّ شيء كيف يطوي السّماءَ، أيْ كيف يكونُ سائراً إلى الله ليتحقّق له الطّيّ الحقيقيّ، والطيران والقفز من مكان إلى مكان، بل من زمان إلى زمان.

وقد توقّفَ الشّيخ الحلّي طويلاً عند تعريف طيّ الأرض وقطْع المسافات الطّوال في زمن قصير والحضور في أوقات غير مرتقبة، وقال إنّه يعني تقريب الأمكنة بعضها من بعض، وكذا إرسال صورة ما إلى المكان المراد، ثمّ الإعدام والإيجاد بأن يعدم البدن والوجود العيني في لحظة ويوجده في مكان آخر. وإلى تعريفه هذا أضيف تعريفاً علميّاً آخر يصبح فيه طيّ الأرض مرادفاً لانتقال المادّة بشكل عامّ وليس الإنسانُ فقط، من نقطة

مكانيّة وزمانية إلى أخرى، بشكل فوريّ ولحظيّ مهما كانت المسافة الفاصلة، والعامل الأساس في تحقّق هذه الظّاهرة هو ارتفاع وتيرة الذّبذبة الطّاقية في الجسم المتحرّك، وليس بالضّروري أن يكون في الأمر أيّ شكل من أشكال المعجزات. ممّا يعني أنّ أيّ شخص يُمكنه الانتقال اللّحظيّ من مكان إلى آخر على أن تتحقّقَ فيه شروط تزكيّة النّفس التي أشار إليها الشّيخُ الحلّي سابقاً في حديثه عن أبي الحارث الذي اكتوى قلبُه بكيّة عدم حفظ العهد والأمانة. وكونُ النّاس لا يصدّقون بمثل هذه الأشياء، فهذا راجع إلى طريقة التّفكير بشكل مادّي محض، وهي الصيغة التي عادة ما يتّبعها العلم المنهجيّ الرّسميّ عموماً في كافة أنحاء العالم، لكن إذا تمّ النّظر إلى المسألة من وجهة نظر هولوغرافيّة محضة فإنّ الأمر يصبح سهلاً ولا غبار عليه تماماً، إذ يكفي فقط معرفة طريقة توليد تأثير موجيّ تذبذبيّ معيّن ليحدث التّغيير في وجهة الزّمان والمكان. وإذ أقول هذا فإنّي أحبُّ أن أركّز على شيء معيّن مفاده، أنّه كلّما صفتِ النّفسُ وتزكّت وتطهّرتْ، ارتفعت وتيرة ذبذبتها الطّاقيّة وبنيتُها الذرّيّة، وكلّما اقترب الجسدُ إلى هذه الهالة الطّاقية وهجرَ الحالةَ المادية الطّينيّة، أصبح من السّهل عليه بالمفهوم الهولوغرافيّ الاقتراب من النّظام الكمومي المُسْتَتِر والتحرّر بالتالي من القيود الزمكانيّة المتجسّدة في المسرح الكونيّ، والحال أنّني أتحدّث عن النّظام الهولوغرافيّ المستتر فإنّي أعني به وبكلّ بساطة، مقام العقل الذي هو الجوهر الأساسيّ لكلّ الكون المتجسّد وهو غير متأثّرٍ بفعل الزّمان، ولكي يصل الإنسان إلى هذا المقام لا بدّ له من إعادة الحياة لكينونة الإمام العليّ فيه، وإحياء جمال الحَسن والحُسين بداخله، وإنّي هنا لا أعني بهذه الأسماء دخول المريد من هذا الباب إلى منظومة دينيّة معيّنة، وإنّما يعنيني قبل كلّ

شيء المعنى الرّمزي لكلّ اسم من هذه الأسماء الّتي ذكرتُ، لأن احتجابَ الإنسان، كلّ إنسان عن عالم الحقائق والكرامات الكبرى إنّما حدثَ وسيظلّ يحدثُ في كلّ زمان ومكان بسبب ما وقع بداخل كيانه الرّوحيّ من فوضى، أيْ حينما تحقّق النّصرُ "المؤقّت" لمعاوية ويزيد، وإنّي لأجلِ هذا أدعوك عزيزي القارئ لتقفَ ولو للحظة عند المعاني الرّمزيّة لكلّ الأسماء التي جردتُ لتتجلّى الحقيقةُ لك كما هي: شمس ليس لوهجها مثيل. فالعليُّ، هو النفحة الإلهيّة التي زوّدَ الله بها الإنسانَ، وأضاف إليها الحسن والحسين لما في الاسم الأولّ من معنى يدلّ على الجمال والقوة والصّلابة، والشيء نفسه بالنسبة للحسين التي هي تصغير لاسم الحسن ليكوّنَ معَ العليّ والحسن ثالوثاً مقدّساً إذا ما اجتمع في قلب إنسان استنار وأضاء ووصل إلى أعلى مقامات الخلّة والمحبّة الإلهية، لكن والحال وأنّنا نعيش في عصر تجلّي اسم "معاوية" الذي يعني في لغة أهل الأسرار جرو الثعلب أو الكلب كرمز لتغلّب الجسد المادّي الطّيني الفتيّ على التجلّي الرّوحي الإلهيّ في الكينونة البشرية بسبب طغيان الغريزة والشهوة المرموز لها باسم "يزيد"، أيْ ما يزيد في النموّ والتطوّر لصغره، فإنّ كلّ هذا أدّى إلى النّكوص في سلّم الارتقاء الرّوحيّ مما يبرّرُ كيف ماتَ عليّ والحسن والحسين كرمز للشمس الإلهية في الكينونة الدّاخلية لكل إنسان، وهذا ما يعني انتفاءَ حصول أيّ نوع من أنواع الكرامات سواء كانت تتعلّق بطيّ الأرض، أو الرّيح أو تسخير السّحاب أو غيرها من العطايا التي لا يمكن أن يتمتّع بها غير أهل النفحات الإلهيّة والشموس المشرقة في القلوب والأرواح بغضّ النّظر عن هوية الاعتقاد والانتماء.

سفري في كتاب (طيّ الأرض) كان ممتعاً، توقّفتُ فيه عند الكثير من القصص الرّائعة التي توثّق لهذه الكرامة التي من الممكن جدّاً أن يسعى لها كلّ إنسان إذا أراد ذلك من كلّ قلبه وهو في طريقه إلى الله. كما لا تفوتني الإشارة إلى أنّ هذا الكتاب كُتبَ بلغة سلسلة وفيه الكثير من المتعة الفكريّة والرّوحيّة، والتي لا شكَّ ستزداد عمقاً إذا رافقتْها قراءةٌ أخرى لكتاب لا يقلُّ أهمّية عن (طيّ الأرض) وأعني به كتاب ((ظهور الحقائق وانقلابها في عالم المُلك والملكوت)) للكاتب الحلّي نفسه، الشيخ عبد الحليم عوض.

# المحتويات

هذا الكتاب؛ ..... ٧

١) الضّيف قادم، ابق في البيت وانتظر: (رحلة مع الأرواحيّة الأسفيّة سوزان كليراك)؛ .... ٩

٢) وقفات خيميائيّة في الشرّ وقضاياه؛ ..... ٣٥

٣) قراءات عرفانيّة في فكر عبد الجبّار الرّفاعيّ؛ ..... ٦٨

٤) من الإنسان الآليّ إلى الإنسان العاليّ في عرفانيات عبد الجبّار الرّفاعيّ؛ ..... ٩٠

٥) حول مائدة البصريَيْن: د. كريم حميد الدرّاجي ومحمود البريكان؛ ..... ٩٦

٦) المدن العارفة باللهّ في قصائد د. كريم حميد الدرّاجي؛ ..... ١٠٥

٧) معاني الانتصار الرّوحيّ في سرديات فريد مراد؛ ..... ١١٧

٨) المجتمع الكونيّ في قصص فريد مراد؛ ..... ١٢٨

٩) قراءة بعين الرّوح في كتاب (طيّ الأرض). ..... ١٣٢

المحتويات ..... ١٣٩

## د. أسماء غريب



- أديبة ومترجمة، باحثة روائية وناقدة أكاديميّة.
- لها في الترجمة: ١٩ إصداراً
- لها في النّقد: ٠٧ إصدارات
- لها في الشّعر ٠٩ إصدارات
- ولها في الرواية والقصّة وأدب الحوار: ٠٦ إصدارات.

**FREE COPY**


دار الفرات للثقافة والإعلام - العراق - بابل

بالاشتراك مع دار سما للطباعة والنشر والتوزيع

ali.abas505@yahoo.com / 07707311570

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٦١٣) لسنة ٢٠٢٠م

*Al-Furat House for Education and Information*

*Iraq – Babylon*

لوحة الغلاف : من إنجازد. أسماء غريب